إمامة الصديق

بين الشيعة وأهل السنة

د. طه حامد الدليمي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســـم الكتاب : إمامة الصديق

المــــــــــؤلف : د. طه حامد الدليمي

رقـــم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١١

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميــدان حليـــم خلـــف بنـــك فيصـــل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_٥@yahoo.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على نبينا محمد القائل: «**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِه أَبُو بَكْرٍ. وَلَو كُنْتُ مُتَّخِذاً خَليلاً غَيرَ رَبّي لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ. وَلكِنْ أُخُوَّةُ الإسْلامِ وَمَوَدَّتُهُ. لا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ بَابٌ إلا سُدَّ إلا بَابَ أَبِي بَكْرٍ**» [١]. وعلى آله.. وأصحابه وأتباعه أجمعين.

وبعد..

قبل عدة سـنوات جمعني في بيتي مجلس مع أحد الشـباب الشـيعة، ودار بيننا نقاش حول الإمامة، ومن هو أحق بها؟ قال لي هذا الشاب: أنا أعجب من تفضيلكم أبا بكر على علي! قلت: لم نفضله نحن، وإنما فضله الله في كتابه. فقال وقد اتسعت حدقتاه عجباً: القرآن فضّل أبا بكر على علي؟!! قلت: نعم، وسأثبت لك ذلك إن أردت. فقال وبلهجة المتحدي الذي لا يشك في موقفه قيد شعرة: إذا أثبتّ لي ذلك فسأتبرأ من علي ولن أعترف به بعد اليوم. قلت: لا.. هذا لا يصح. شيء من التوازن يا أخي، فلا تنتقل من النقيض إلى النقيض! لا أريد منك إلا أن تصـحح موقفك من أبي بكر وتحبه مع علي رضـي الله عنهما، من دون غلو. والآن استمع وأجب:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ فهل هناك أفضل، وأعلى منزلة من الأتقى؟ .

« لا » .

من ترى المقصود بـ(الأتقى) في قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾؟

فأجاب بعد تردد:

« الإمام علي » .

«فما جوابك على أن هذا (الأتقى) يصـفه الله بأنه: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ ؟ والآية مكية من أول ما نزل على النبي ^ وعلي لا زال غلاماً يافعاً لا مال له، وإنما يعيش في كفالة النبي ^. فهل كان علي ﷺ عند نزول الآية ذا مال ينفق منه؟ حتى يصح وصفه بأنه ﴿يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾!)»

حاول صاحبي أن يتملص من قبضة هذا الكلام دون طائل. فلم أشأ أن أحرجه. قلت له:

« فما قولك عن تقييد الآيات وصف هذا المذكور بأنه ليس لأحد عليه من نعمة أو فضل سابق يحتاج لأن يجزى؟ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ وعلي كان يعيش في نعمة رسـول الله ^ منذ نعومة أظفاره.. حتى إذا كبر زوجه ابنته، فأي نعمة أعظم من هذا؟! »

وهنا لم يجد صاحبي إلا أن يقول:

«فلعله رجل آخر غير أبي بكر ، فإذا سلمت أنه ليس علياً ، فمن أين لك أنه أبو بكر لا غير؟ »

قلت له:

---

(١)متفق عليه.

« إذا وصلنا إلى هذه المرحلة فأنا لا أحتاج كثيراً إلى أن أثبت أنه أبو بكر حصراً. ما يهمنا أنه ليس عليًّا، فيكون (الأتقى) أي الأفضل رجلاً آخر غير علي. وهذا يعني بطلان ما تعتقدون في أفضلية علي على جميع الصحابة.. ومن القرآن! ».

فلم يجد صاحبي هنا ما يلوذ به غير السكوت!. فقلت:

« والآن اسمع أدلتي على أن المقصود بالآية على وجه الخصوص هو أبو بكر الصديق ، وليس أحداً غيره ».

وبدأت أسرد له الأدلة على ما ستراه مفصلاً لاحقاً في هذا الكتاب. وأتممته بالحديث عن آية (الغار) وغيرها من الآيات في فضل الصديق فكانت القاضية بحمد الله.

وما أريد أن أقوله من خلال هذه الحكاية : إن أبا بكر الصديق رجل ثبتت أفضليته المتفردة في القرآن. هذا هو الحق.

وأريد أن أقول أيضاً: إن آيات القرآن العظيم هي أقصر الطرق للوصول إلى الحق.

ليس هذا فحسب.. وإنما لا ينبغي للمسلم أن يجنح إلى غير القرآن في المسائل التي يقوم عليها الدين والتي تسمى بـ(الأصول)، ولا يقبل ذلك منه بأن (يلفلف) الموضوع برأي من هنا ورواية من هناك وتفسير مرجوح أو راجح بين هذا وذاك.

وليس هذا فحسب!..

بل لا بد أن تكون الآيات المحتج بها صريحة الدلالة محكمة، وليست ظنية متشابهة.

وقد تأملت هذه النقطة كثيراً، ووقفت عندها مليًّا فتوصلت إلى حقيقة هي من أعظم حقائق الوجود، ألا وهي أن الأدلة الأصولية – أي التي تستند عليها الأصول - لجميع الطوائف المنحرفة - على الدوام - من خارج صريح الكتاب المنزل.

وناقشت هذه الحقيقة أو القاعدة نقاشاً مستفيضاً في كتابي (المنهج القرآني الفاصل بين أصول الحق وأصول الباطل)، وطبقتها على أصول الشيعة. وعندما ناقشت موضوع (الإمامة) عموماً و(إمامة) علي خصوصاً انقدحت في ذهني فكرة وهي: أن أبين للقارئ بالمثل الملموس أن (الإمامة) لو كانت تثبت بغير صريح القرآن لاستطعنا أن نثبت (أئمة) لا حصر لهم!. والواقع التاريخي شاهد: فقد أحصيت في كتابي (العصمة) أكثر من خمسين (إماماً) للشيعة! وأكثر من عشرين (مهدياً) خلال القرون الثلاثة الأولى فقط !! احتج لهم أصحابهم بمثل ما احتجت به الشيعة الاثنى عشرية من حجج، ليست واحدة منها آية من الكتاب صريحة قط! فقلت: لو أخذت أبا بكر كمثال، وبرهنت للقارئ خطوة خطوة كيف أننا لو اتبعنا طريق الإمامية - الذي يسلكونه في (التدليل) على (إمامة) علي - للتدليل على إمامة أبي بكر لتبين له جلياً أنه لا بد من القول بـ(إمامة) أبي بكر من باب أولى . وعندها سيتأكد لديه بطلان تلك الطريق ، وأنها ليست أكثر من متاهة لا آخر لها ولا شكل، أو نفق لا يبدو في نهايته بصيص من نور.

وحتى تتجلى هذه الحقيقة تماماً ضربت مثالاً آخر يبدو بعيداً للناظرين، وغريباً على المتأملين ألا وهو الحديث عن (إمامة) معاوية، وإثباتها بالطريقة نفسها حتى أقطع من نفس القارئ كل شك في بطلان هذه الطريقة التي أضلت جبلاً كثيراً من العالمين!. ولم أشأ أن أطيل في هذا لعدم الحاجة إلى الإطالة فيه، فاكتفيت بذكر بعض الشواهد الدالة. فكان هذا الكتاب الطريف الذي ستجد فيه كثيراً من الأفكار الأصيلة، والفوائد الجليلة، والالتفاتات اللطيفة ما قد لا تجدها في غيره من الكتب طالت أم قصرت.

قد يقال: إن الخوض في مثل هذه المسائل لا طائل تحته بعد هذه القرون المتطاولة، وقد اختفى أبطالها من مسرح الحياة: فلا أبو بكر حي.. ولا علي، كي نختار أولاهما بالأمر. وهذا صحيح في ذاته. ونحن نقول به وندعو إليه طبقاً لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:١٣٤،١٤١]. لكن موضوع (الإمامة) والخلافة يطرق يوميا وعلى مدار الساعة، ويثار باستمرار، وتبنى عليه مسائل في غاية الخطورة. فهو من هذه الناحية حي يتحرك لا يصح معه أن ندفن رؤوسنا في الرمال حلاً للإشكال.

إن الإمامية يعتبرونه أصل الاعتقاد ومبدأه ومنشأه.. فكيف يتركونه؟!

فمن أراد أن يلوم فليتوجه بلومه إلى البادئ؛ فإن المدافع لا تثريب عليه. حتى يكفّ الأول ويرجع عما هو عليه، عند ذاك يصح أن يطالب الآخر بالكف والسكوت. وهذا هو الذي نريده ونتمناه. فلو كفّ الشيعة عن هذه المسائل الجدلية العاطلة التي لا أرضية ولا واقع ولا معنى لها وسكتوا لكففنا وسكتنا.. وانشغلنا بحمد الله رب العالمين.. والعمل بشرائع الدين المبين.



تمهيد

يعتقد الإمامية أن (الإمامة) منصب إلهي يتم بالتعيين من الله (بالنص أو الوصية من الإمام السابق)، وليس سياسياً ينعقد بالشورى من الأمة. ويجعلونها أصلاً من أصول الاعتقاد لا يصح الإيمان إلا به. ولا يتحصـــل ذلك بمجرد الإيمان بمبدأ (الإمامة) عموماً وإنما لا بد من الإيمان بعدد محدد من الأئمة تفصيلا.

وإذا كانت (الإمامة) بهذه المنزلة من الدين فلا بد لزوما أن ترد في الكتاب المبين مصــــرحًا بها تصريحًا لا يسع أحدًا إنكاره أو تأويله أو صرفه إلى معنى آخر كما هو شأن القرآن مع الأصول كالنبوة عمومًا ونبوة محمد ^ خصـوصًـا، فضـلا عن (معرفة الله تبارك وتعالى) [٢] إذ جاءت الآيات في ذلك نصوصًا صريحة صراحة لا تحتاج معها إلى تفسير يوضحها ولا رواية تعضدها.

إن أصول الدين لا يتسامح الشرع بعدم معرفتها؛ إن إنكارها يستلزم الكفر. ولأنها بهذا المستوى من المنزلة والخطورة فقد أقام عليها الحجة الكاملة من وجهيها: الثبوت والدلالة. فكانت أدلتها في أصـــح وثيقة ألا وهي القرآن الكتاب المحفوظ الذي (لا مبدل لكلماته) و (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه). هذا من ناحية الثبوت. وأما من ناحية الدلالة فإن أدلة الأصول صريحة صراحة تامة وألفاظها لا تحتمل غير معنى واحد محدد هو ما دلت عليه من ذلك الأصل، فكانت أدلة الأصول قطعية الثبوت وقطعية الدلالة فلا يمكن أن يتطرق إليها الشك بأي حال من الأحوال؛ ولذلك يكفر منكرها بلا تردد.

إن الله تعالى لم يحوجنا لمعرفتها إلى تفســير مفســر ولا إلى رواية راوٍ لســبب مهم وخطير هو أن التفسـير وكذلك الرواية - من حيث الإسـناد والنقل وكذلك التفسـير والشـرح - فعل بشـري لم يتعهد الله تعالى بصيانته وحفظه من تطرق الخطأ أو الهوى.

إن الرواية يمكن أن تصـنع.. ويمكن أن يزاد عليها، وينقص منها لتكون حسـب الطلب. وليس كذلك شأن الآية القرآنية.

والتفسـير غير معصـوم من الخطأ لأن العالم غير معصـوم بل قد يتصـرف فيه بالهوى. أما الآراء و(العقليات) فهي فعل بشـــري محض يقبل الخطأ والصـــواب. والدليل على ذلك اختلاف العقلاء فيما يعتقدون ويعقلون، فلا يمكن الاطمئنان إليها في المسائل التي لا تقبل الخطأ والصواب -كأصول الدين- دون النص القرآني القطعي الدلالة.

أما الآية القرآنية القطعية الدلالة فلا يمكن تفسـيرها بغير دلالتها بل هي لا تحتاج إلى تفسـير. ومن هنا كانت أصول الدين يقينية وكان الدين يقينياً، لثبوت أصوله جزماً ويقيناً، ثبوتاً ودلالة.

إن الدين أمر عظيم قائم على اليقين ؛ لذا فقد أرسى الله جل وعلا دعائمه وأصوله على أساس مكين من الأدلة اليقينية القطعية التي لا تقبل الشـــك أو اختلاف الأنظار لا في ثبوتها ولا دلالاتها، أودعها كتابه العظيم آيات محكمة ونصوصاً صريحة مفصلة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

وليسـت دعائم الدين وأصـوله عرضـة لأن توضـع وتثبت بسـوانـــح الأفكار وشـوارد الخواطر والأنظار. أو الاسـتنتاجات العقلية والترتيبات أو (الفذلكات) الفكرية، أو اسـتنطاق النصـوص وتحميل الألفاظ فوق ما تحتمل، أو اقتناص الشبهات والظنون، أو تركيب العبارات وتلصيقهـــا، وإن اقتضى الأمر فتفكيكها وتمزيقها للخروج بمعاني جديدة، ومقاصد محدثة لم توضع لها تلك العبارات أساساً!

---

(٢)يروي الكليني [أصول الكافي ١٨١/١] بسنده عن أبي عبد الله (ﷺ) أنه قال: كان أمير المؤمنين (ﷺ) إماما ثم كان الحسن (ﷺ) إماماً ثم كان الحسـين (ﷺ) إماماً ثم كان علي بن الحسـين إماماً ثم كان محمد ابن علي إماماً من أنكر ذلك كان كمن أنكر معرفة الله تبارك وتعالى ومعرفة رسوله ^ وآله .

إن هذه الوســائل المعوجة، والطرق المتعرجة هي (الســبل) التي ســلكها الإمامية لإثبات (الإمامة) كأصل دون استناد إلى نصوص صريحة قطعية الدلالة من القرآن.

فإن كانت (الإمامة) تثبت لشخص بسلوك هذا السبيل، وتصير أصلاً شرعيًّا اعتقاديًّا يكفر جاحده، فنحن سنسلك السبيل نفسه لنثبت (إمامة) خليفة رسول الله ^ سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ .

فإذا ثبتت (إمامته)، وتبين بالمقارنة أنها أولى من (إمامة) غيره من الأمة، فهل يملك الإمامية الشجاعة الكافية لتطبيق حكمهم القاضـي بتكفير جاحدها على أنفسـهم بأنفسهم؟ أم تدفعهم هذه الشجاعة إلى الرجوع إلى الحق؟ والكفر بهذه الخزعبلات التي ما أنزل الله بها من سلطان؟

إننا لا نريد من الشيعة أن يؤمنوا بـــ(إمامة) أبي بكر بمعناها الاصطلاحـــي عندهم؛ لأننا لا نؤمن بإمامة كهذه: لا له ولا لغيره، وإنما نعتقد بأنه من الأئمة الصـــالحين والخلفاء الراشـــدين. إنما ندعوهم ونطالبهم بأن يتولوا أبا بكر ﷺ ويحبوه ويتابعوه تأسياً في ذلك بعلي بن أبي طالب ﷺ الذي بايع وشايع وتابع مخلصًا محبًّا أمينًا.

وقبل هذا وذاك تنفيذاً لأمر الله الثابت في كتابه الكريم وسنة نبيه العظيم ^.



أحقية الصديق بمنصب الإمامة

تستند أحقية أبي بكر الصديق بمنصب الإمامة وأولويته به إلى ثلاث قواعد عظيمة. كل واحدة تشد من الأخرى، وتؤيدها، وتظهر صحتها واستقامتها. وهي:

١- إجماع المهاجرين والأنصار على بيعته.

٢- خصائصه التي تفرد بها. وأهمها ثلاث:

أ- أول الناس إسلاماً.

ب- الآيات التي نزلت بحقه.

ج. ما خصه به النبي ^ من الفضل.

٣- سياسته وإنجازاته. وأعظمها أربعة:

أ. القضاء على الفتن الداخلية.

ب. التصدي للأخطار الخارجية. والجهاد لنشر رسالة الإسلام.

ج. حفظ الدستور الإسلامي. وجمع القرآن العظيم.

د. حسم معضلة ولاية الأمر من بعده.

فإجماع الصـــحابة على بيعته قائم على معرفتهم العميقة بكون الصـــديق يتحلى بصـــفات خاصـــة متميزة، ومؤهلات متفردة. ولم يقم على عواطف هوائية، أو مجاملات ومزايدات سياسية.

وســـياســـته وإنجازاته أثبتت- على الواقع - الأمرين معاً: فهي قد دللت- من ناحية - على أن الرجل يمتلك مؤهلات خاصة متفردة. وأثبتت - من ناحية - صحة إجماع الصحابة، وسداد رأيهم في اختياره خليفة لهم بعد رسول الله ^ . وأنه إجماع واختيار قائم على أساس ثابت، وقاعدة مكينة.

وبهذا يتبين أن خصائصه ﵁ هي قاعدة القواعد: عليها استند ذلك الإجماع المبارك. ولأجلها نزلت تلك الآيات البينات، وتوالت الأحاديث والروايات تمدحه وتثني عليه. وما تلك الســـياســـة الحكيمة، والإنجازات الرائعة إلا الثمرة الطيبة لتلك الخصـــائص العظيمة المتميزة التي كان يتمتع بها ذلك الإنسان الرباني العظيم.

وسأتناول كل واحدة من هذه القواعد بالتفصيل.



القاعدة الأولى
إجماع المهاجرين والأنصار على بيعة الصديق

لقد أجمع المهاجرون والأنصار ﷺ على بيعة الصديق وإمامته. وإجماع المهاجرين والأنصار حجة شرعية كاشفة عن مراد الله تعالى ورضاه: فقد أوجب الله تعالى على أجيال الأمة جميعاً اتباع المهاجرين والأنصار فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة:١٠٠]. وحذر من مخالفتهم فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]. وما المؤمنون عند نزول الآية غير المهاجرين والأنصار.

إن إجماع الأمة في جيل من الأجيال حجة شرعية. فكيف بإجماع من نصَّ الله على وجوب اتباعهم وحرمة مخالفتهم، وشهد على صدق إيمانهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال:٧٤]؟!

وإذا كان الإمامية يشترطون للإجماع وجود (المعصوم) فإن عليًّا رضي الله عنه - الذي يعتقدون بعصمته - كان من ضمن المجمعين على بيعة الصديق رضي الله عنه، فبيعة الصديق إذن شرعية على جميع المذاهب. وتخلف واحد أو اثنين ليس حجة على المجموع. بل المجموع حجة على المخالف. ومخالفته شذوذ واتباع لغير سبيل المؤمنين.

والذي عليه المحققون أن بيعة الصديق رضي الله عنه لم يتخلف عنها أحد. وإن كان علي قد تأخر - هو والزبير - رضي الله عنهما بعض الوقت فإنما لكونهما قد وجدا في نفسيهما بسبب أنهما أخرا عن الشورى[٣]. وعذر أبي بكر رضي الله عنه أن الظرف لم يسعفه لذلك، وإلا حسم الأمر لصالح الأنصار. ثم بايعا في اليوم الثاني وتابعا[٤]. وقد قيل :إن عليًّا بايع بعد ستة أشهر، والصحيح أن هذه البيعة تجديد وتأكيد للبيعة الأولى؛ فإن علياً رضي الله عنه لم يفارق أبا بكر في وقت من الأوقات قط، وكان له في حروب المرتدين خير ظهير. ومهما كان فإنه بايع آخر الأمر، والأمور بخواتيمها. وأما سعد بن عبادة رضي الله عنه فقد بايع أيضاً. وهذا هو الصحيح الثابت عنه[٥].

وما قيل بخلافه فإنه لم يثبت. وإنما هو من وضع الرواة[٦]. ولو صح فالحجة على من لم يبايع - كائناً من يكون - وليست له. ولقد تخلف عن بيعة علي رضي الله عنه كثير من الصحابة رضي الله عنهم. وليس ذلك- عند الجمهور- بضائره؛ لأن الإجماع ليس شرطاً في البيعة. ولكن إذا حصل كان حجة واضحة ملزمة، ودلالة كاشفة عن رضاء الله تعالى - كما هي الحال في بيعة أبي بكر وعمر وعثمان - لأن الله لا يجمع أمة الإسلام على ضلالة. والإجماع حجة شرعية.

حتى مصادر الشيعة روت هذا الإجماع، وعلى لسان علي نفسه! كما جاء في كتاب (نهج البلاغة): (إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد. وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا على رجل وسموه إمامًا كان ذلك

---

(٣)روى ابن أبي الحديد أن علياً والزبير قالا: (ما غضبنا إلا في المشورة وإنّا نرى أبا بكر أحق الناس بها إنه لصاحب الغار وثاني اثنين ولقد أمره الرسول (^) بالصلاة وهو حي)/ شرح نهج البلاغة ج٦ ص٤٨ .

(٤)صححه ابن كثير في البداية والنهاية ٢٤٩/٥ نقلاً عن (أبو بكر الصديق) للدكتور علي محمد الصلابي ص١٨٢ .

(٥)روى الإمام أحمد عن حُمَيد بن عبد الرحمن أن أبا بكر قال: (ولقد علمت يا سعد أن رسول الله قال وأنت قاعد: « قريش ولاة هذا الأمر فبر الناس تبع لبرهم، وفاجر الناس تبع لفاجرهم» قال: فقال له سعد: صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء).

(٦)من رواية الإخباري التالف أبي مخنف لوط بن يحيى [انظر: الصلابي ص١٣٠] الذي شوه تأريخ الإسلام. أما متنها فلا يستقيم مع ما هو معروف من شخصية سعد بن عبادة، ولا ما هو معروف من أخلاق الصحابة. فالرواية باطلة سنداً ومتناً.

لله رضًــا فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى) [٧].

وليس ذلك - كما يقول البعض – موضـوعاً مجاراة لحجة الخصـم من باب إبطال حجته بإلزامه بما يلزم به نفسه؛ لأن النص يقول: (وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضًـــا). والقول بأن الله راض عمن أجمع عليه المهاجرون والأنصـــار لا يمكن أن يصدر مجاراةً وإلزاماً، وإنما اعتقادًا والتزامًا.

فكيف إذا أكده بذكر ترتيب العقوبة الشـديدة المغلظة (القتل) على الخارج الطاعن في بيعة من أجمعوا على بيعته: (فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه الى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه)! قاتلوه على ماذا؟ (على اتباعه غير سبيل المؤمنين) أي المهاجرين والأنصار.

وفي هذا النص تتأكد جملة حقائق عظيمة هي:

- صحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان.

- لأنها تمت بإجماع المهاجرين والأنصار.

- أن إجماع المهاجرين والأنصار دليل كاشف عن رضاء الله تعالى وإرادته الشرعية.

- أن من شــذ ممن شـهد أو غاب –في ذلك الجيل وكل جيل– فخالف، لا يعتد بخلافه. أي أن خلافه غير معتبر.

- أن الطاعن في خلافتهم متبع غير سبيل المؤمنين وخارج عن أمر المسلمين.

- أن الطاعن في خلافتهم يدعى ويرشـد ويسـتتاب فهو متهم ومرتكب جريمة يجب أن يرجع عنها ولا يصح أن يتخذ قدوة ومرشدًا.

- أن من أصر على هذه الجريمة بعد البيان يقاتل.

- أن إرجاع هؤلاء الخارجين المارقين إلى الحق واجب على الأمة حتى لو استلزم القتال.

- أن الخلافة وتنصيب الإمام بالشورى وليس بالنص الإلهي.

- أن الشورى للمهاجرين والأنصار.

- أن إجماع المهاجرين والأنصار حجة شرعية.

- عدم وجود نص إلهي في إمامة علي. وكل ما قيل من ذلك فهو من تلفيق الرواة وصنع البغاة.

- أن مصطلح (إمام) و(إمامة) الذي يردده الإمامية أمر محدث مخترع لم يستعمله علي ولم يعرفه؛ فالإمام عند علي يُعيَّن بالاختيار البشـــري وليس بالوصـــية أو النص الإلهي: (فإن اجتمعوا على رجل وسموه إمامًا كان ذلك لله رضًا) وهذا مخالف لما عند الإمامية تماماً.

- أن طعن الإمامية بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان باطل. بل جريمة عظيمة تسـتحق أقســى العقوبات.

***

(٧)نهج البلاغة ٧/٣.

أن هذا الطعن مخالف لحكم أمير المؤمنين علي ﷺ(٨).

لقد انعقد الإجماع التام على بيعة أبي بكر ﷺ وهذا دليل على أنه أفضل الأمة وأولى الصحابة ﷺ بالإمامة. وإلا فلو رأى الصحابة غيره هو الأولى لقدموه. فلما أجمعوا على بيعته - وإجماعهم حجة - دل ذلك على أنه الأفضل والأولى بالإمامة والخلافة، لا سيما وأن رسول الله ^ قدمه للصلاة إماماً بالمسلمين في مرضه الأخير قبل وفاته. وهذه تزكية ما بعدها مثلها لأنها صادرة من رسول الله ^ نفسه. ولهذا قال علي والزبير رضي الله عنهما: (إنا نرى أبا بكر أحق الناس بها، إنه لصاحب الغار وثاني اثنين ولقد أمره الرسول ^ بالصلاة وهو حي) (٩).

والفرق واضح بين الخليفتين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما في تحقق الإجماع! إذ أن الإجماع قد انعقد على أبي بكر دون علي الذي لم يبايعه بعضهم. وبايع بعضهم مكرها، وبايع آخرون لكنهم اعتزلوا. وكلهم مجتهد في طلب الحق فمخطئ ومصيب. والكل مغفور له مأجور ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

(٨)يحتج البعض بأن هذا مخالف لما ورد في كتاب (نهج البلاغة) من قدح أو ذم للخلفاء الراشدين الثلاثة مثل الخطبة المسماة بـ (الشقشقية) ويتخذ من ذلك وسيلة لإغماض الطرف عن هذا النص وأمثاله في مدحهم وتوثيقهم! والرد على ذلك بما يلي:

١- إن كتاب (نهج البلاغة) ليس معصوماً من الزيادة والنقصان. بل فيه من ذلك الكثير - ولا بد - وإلا كان كالقرآن !

٢- إن هذا الكتاب نصوصه جميعاً بلا استثناء مرسلة لا أسانيد لها وبين جمعها ووفاة علي ﷺ أكثر من ثلاثة قرون ونصف ! فإن الشريف الرضي ذكر في المقدمة أنه انتهى من جمعها سنة (٤٠٠هـ) وعلي توفي سنة (٤٠هـ)! وذكر أيضاً أن ما وجده من ذلك على ألسنة الناس مختلف شديد الاختلاف وهذا يعني أن الكتاب ضعيف من حيث الإجمال؛ لأن المرسَل – حسب قواعد علم الحديث - أحد أنواع الضعيف وهو قول الإمامية أيضاً المقرر في أصولهم. فلا بد من تحقيق النصوص إذا أردنا الاعتماد.

ولم أجد أحداً من الذين وثقوا الكتاب اتبع الأسلوب العلمي المجرد عن العاطفة في توثيقه له. وذلك لا يجدي في باب العلم وإنما يسوغ في مجال الدعاية اعتماداً على ما في نفس القارئ من مشاعر وعواطف لا استناداً على ما في باب العلم من أصول وقواعد.

والذي يلزم الباحث في هذا الفن أن ينقب عن سند لكل نص ثم يقوم بتحقيقه طبقاً لقواعد علم الحديث أو الرواية توصلاً إلى صحته أو ضعفه وهذا ما لم يفعله كل الذين حاولوا – عبثاً - توثيق الكتاب. فتوثيقهم إذن ليس برهاناً علمياً وإنما خطابي دعائي لا أكثر. فالأصل في الكتاب الضعف حتى يثبت العكس.

٣- إن الخطبة الشقشقية وما في موضوعها مما ورد في الكتاب يتناقض مع هذا النص وأمثاله وهو كثير. والجمع بين النقيضين لا يمكن عند العقلاء. فلا بد من طرح أحدهما إذا أردنا التمسك بالآخر. ولكن ليس بالهوى والعاطفة فيقال بأن هذا النص يخالف الخطبة الشقشقية فهو مرفوض لأن هذا ليس بأولى من قولنا بأننا نرفض الخطبة الشقشقية لمخالفتها لهذا النص.

٤- إن طرحنا لهذه (الشقشقيات) وجزمنا بوضعها واختلاقها ليس عاطفيًّا دعائيًّا وإنما يعتمد على قاعدة راسخة ألا وهي: إن كل ما خالف القرآن باطل. وهو ما جاء منصوصًا عليه في مصادر الإمامية منقولاً عن الإمام جعفر بن محمد ﷺ أنه قال: (ما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه).

=

= وحاشا عليًّا أن يخالف كتاب الله هذه المخالفة ويطعن في خيرة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين قال الله عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال:٧٤]. وقال يأمر باتباعهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ [التوبة:١٠٠]. وحذر من مخالفتهم فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]. وقد بايع علي لهم ونصح وتابع ولم يكن مداهنًا ولا منافقًا!

٥- إن الاستشهاد اعتضاداً لا اعتماداً بما في (نهج البلاغة) وغيره مما يوافق القرآن أو لا يخالفه ليس فيه ضير أو ضرر على الدين بل العكس هو الصحيح فكان استشهادنا بهذا النص من هذا الباب المشروع.

(٩)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٣٢/١.

القاعدة الثانية
خصائص الصديق

وهي فضائله التي اختص بها دون باقي الصحابة. فهي بمثابة خصائص انفرد بها، لا مناقب يشاركه فيها الآخرون. فهو لذلك أفضل الصحابة: شاركهم في فضائلهم وتفرد عنهم بما اختص به دونهم.

وأبرز هذه الخصائص- كما أسلفت – ثلاث هي:

١- أول الناس إسلاماً.

٢- الآيات التي نزلت في حقه.

٣- ما خصه به النبي ^ من الفضل.

سأتكلم عنها واحدة واحدة:

١- أول النـاس إسلامــاً :

لا شك أن السبق المجرد لا مزية له ما لم يقترن به المقصود منه ألا وهو استغلال وقت السبق في العمل النافع ما يعطيه الأولوية عند المقارنة بمن تأخر. فإذا كان عمل المتأخر أكثر وأنفع، كان له الفضل، وإن تأخر زمن نزوله إلى الميدان. ولذلك قد يتخلف السابق.. ويتقدم اللاحق.

إن القول بأن علياً أسلم قبل أبي بكر، أو أن أبا بكر أسلم قبل علي، وبعضهم يلجأ إلى حل وسط فيقول: أول من أسلم من الرجال أبو بكر وأول من أسلم من الصبيان علي - لا معنى له غالباً إلا الجدل الفارغ، أو المجاملات الزائفة التي لا نفع يرتجى من ورائها ، ولا قيمة لها في الميزان كبيرة؛ لأن الأفضلية والقيمة للعمل، لا للزمن المجرد(١٠).

ولذلك حينما ذكر الله تعالى فضل من آمن قبل الفتح على من تأخر من بعده لم يعلق الفضل بمجرد السبق في الزمن. وإنما علقه بالعمل الذي هو الإنفاق والقتال فقال: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد:١٠]. وإلا فإن بعض المسلمين سبق في إسلامه الفتح لكنه لم يهاجر ولم ينفق ولم يقاتل. وهؤلاء قال الله عنهم:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ﴾ [الأنفال:٧٢].

(١٠)ذات مرة كنا جالسين في حجرة الإمام في جامع المحمودية الكبير- وكنت حينها إمام وخطيب الجامع - قلت لصاحب لي كان إلى جنبه ولده الصبي الصغير: هذا المسجد يحتاج إلى خدمات ولوازم كثيرة، ويحتاج إلى رعاية وحماية. فلو تولى توفير هذه الخدمات واللوازم كلها، وتولى أمر رعايته وحراسته، وما يتبع ذلك من مصروفات، وقام بالدفاع عنه أمام هجمات أعداء يرومون تخريبه، والإساءة إلى رواده رجل دخله للمرة الأولى بعد يوم أو شهر من هذا التأريخ. ثم استمر يواظب على الصلاة فيه -من بعد- وصار من رواده الدائمين. وتمر الأعوام ليأتي بعد ذلك من يقارن بينه وبين ولدك الصغير هذا ليقول: إن ولدك أفضل منه لأنه سبق إلى دخول المسجد يوماً أو شهراً أو ساعة من نهار! أو يجعل لهذا الزمن الخالي من أي عمل إيجابي قيمة في المعادلة! أيصح هذا؟! وبهذا يتبين أن الذي حمل أصحابنا على القول بأن أول من أسلم من الرجال فلان، وأول من أسلم من الصبيان فلان، وأول من أسلم من النساء فلانة.. إلخ. إنما حملهم عليه المجاملة والرغبة في ترضية قوم لا يزيدهم هذا الأسلوب إلا عتواً ونفوراً! والدليل أنهم حين قالوا: إن علياً أول من أسلم من الصبيان لم يقولوا لنا: من أول من أسلم من الصبايا؟ كما يقول الأستاذ محمود الملاح في كتابه (الآراء الصريحة لبناء قومية صحيحة) ص٧٣ رحمه الله.

ولكن هل انتفعوا بشيء رغم انحدارهم إلى هذا المستوى من المجاملات؟!

لقد أسلم أبو بكر الصديق ﷺ أول الناس، إسلاماً نفع الدين وكذلك الأمة أعظم النفع، فكان أولَ داع في الإسلام بعد رسول الله ^ ـ وقد أسلم على يده وجوه المجتمع وصناديده ـ وأولَ خطيب. ودافع عن النبي ^ بيده ولسانه فضرب ضرباً شديداً حتى سقط لا يشك أحد في موته. وبذل ماله كله في نصرة الدين، وقضاء حوائج رسول الله ^ليتفرغ للدعوة والتبليغ فكان أحق الناس بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ الآية. وأحق الناس بموضع منة الله تعالى على نبيه ^ وهو يقول له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الانشراح:١-٣]. فبه شرح الله صدر نبيه وخفف عنه حمله الذي كاد يقصم ظهره. نعم أسلم علي ﷺ في اليوم الأول لدعوة النبي ^ وقد كان في بيته. لكنه كان صبياً في الثامنة أو العاشرة من عمره، لا يستطيع أن يشارك النبي ^ في هم، أو يشركه في رأي. ولم يكن قادراً على الدفاع عنه بيد أو لسان. وليس عنده من مال. بل كان هو نفسه في كفالة النبي ^ ماديًّا ومعنوياً: يأكل في بيته، ويأوي إليه، ويلبس مما ينفقه عليه. فهو أحد هموم النبي ^.

وبسبب هذه الأسبقية نزل في حق الصديق ﷺ من الآيات ما لم ينزل في حق غيره طراً. ومدحه الرسول ^ بما لم يمدح به أحداً غيره، وأنزله من المنازل ما لم ينزل سواه أحداً من العالمين أجمعين.

٢- الآيات التي نزلت في حق الصديق :

نزلت في حق الصديق ﷺ آيات كثيرة. منها آيات عامة يشترك معه فيها غيره من الصحابة أو الأمة. ومنها ما هي خاصة به لم يشركه فيها أحد منهم.

وحتى الآيات العامة ـ إذا تأملتها ـ تجد لأبي بكر فيها من النصيب ما ليس لأحد غيره. فهي من هذه الناحية تندرج في خصوصياته، لا من حيث النوع.. ولكن من حيث الكم.

يأتي على رأس قائمة هذه الآيات اثنتا عشرة آية: أولها (آية الغار)، وآخرها (آية الولاية). وما بينهما سورة (الليل) و سورة (الشرح)، و(آية الفضل) و(آية التفضيل) و(آية الصدق) و(آية التصديق). وغيرها من الآيات البينات سنتناولها جميعاً بالتفصيل. ونترك بقية الآيات خشية الإملال والتطويل.

آية الغار :

وهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠].

لقد نزلت هذه الآية العظيمة في حق رسول الله ^ وحق الصديق ﷺ لم يشركهما في شرفها وفضلها أحد من الأمة أو الصحابة ﷺ . وفيها من الفضائل التي اختص بها أبو بكر الصديق دون غيره من الأصحاب ما لا يحصى.

وسنقسم البحث فيها إلى عدة أقسام: قسم منها نسميه تجليات الخصائص، وهي أربع سنفرد كلاً منها بمبحث. ومن المباحث ما نقسمه إلى تقسيمات جزئية أخرى كالمعالم، ومظاهر المعالم. كل ذلك من أجل لملمة تشعبات البحث، وإعطاء صورة متكاملة عنه.

أما الخصائص فقد تجلت في:

- تفرده بلقب (صاحبه).
- تفرده بالمعية الخاصة.

- تفرده بوصف (ثاني اثنين).

- تفرده بمواساة النبي ^ .

وموضوع (الصحبة) فيه مبحثان:

الأول: في حقيقة هذه الصحبة واقعاً.

والثاني: في آثارها.

وآثار (الصحبة) فيها معلمان:

الأول: في علم الصديق وإيمانه.

والثاني: في حسن خلقه وسلوكه.

وقد تجلت المعالم في مظاهر:

فالعلم والإيمان تجلى في ثلاثة مظاهر هي:

- موقفه من الاختلاف في وفاة النبي ^.
- موقفه في البيعة.
- قتال المرتدين.

وأما حسن الخلق فقد تجلى في ثلاثة مظاهر أيضاً هي:

- الصدق والتصديق.
- الشجاعة.
- الإنفاق والكرم.

- وسأتكلم عن كل قسم من هذه الأقسام بالتفصيل:

تجليات خصائص الصديق في آية الغار :

التجلي الأول: تفرده بلقب (صاحبه) :

في الآية الكريمة يتفرد الصديق بلقب الصاحب المضاف إلى أشرف مصحوب: رسول الله ^ إذ جاء اللفظ هكذا: (صاحبه).

لقد كان لرسول الله ^ آلاف الأصحاب لو أقسم أحدهم على الله تعالى لأبره، فلم يختر ربنا أحداً منهم يشرفه في القرآن كله بإضافته إلى نبيه ^ بهذه التسمية غير أبي بكر! فيا لها من مزية تفرد بها ! ويا له من شرف تناهى وما انتهى !.

إن كل فضيلة تعلقت بالصحبة فأبو بكر أولى بها، وله منها السهم الأوفر لأنه الفائز بلقب الصاحب في القرآن دون بقية الأصحاب.

لو كان لملك من الملوك عشـرة وزراء، فأطلق على واحد من بينهم فقط لقب (وزير الملك)، وكتب في ذلك مرسوماً ملكياً وأعلنه على الملأ فإن الناس جميعاً سيعرفون أن هذا الوزير هو المقدم على بقية الوزراء، وإلا لما أفرد هذا الوزير من بينهم بهذا اللقب مع أنهم جميعاً وزراؤه.

ومن هنا جاءت أفضـــلية الصـــديق على بقية الأصـــحاب - بمن فيهم عمر وعثمان وعلي - لأنه المختص من بينهم في القرآن بلقب صاحب النبي. فمن هو الأولى من صاحب النبي ^ بمنصب الإمامة والخلافة ! فليس عبثاً أن يكرمه الله تعالى فيخصه بلقب خليفة رسول الله ^ فلم يطلق على أحد غيره !

١- حقيقة هذه الصحبة :

(صاحبه) قبل الإسلام وبعده.. وفي حياته ومماته :

تفرد أبو بكر الصديق بصحبة النبي ^ قبل الإسلام حتى صارت قريش تطلق عليه وعلى محمد لقب (صــاحبك) فإذا قالوا لأحدهما: (إن صــاحبك كذا وكذا) لا ينصــرف الذهن إلا إلى الآخر !وجاء القرآن شاهداً ومؤكداً إذ أطلق هذا اللفظ (صاحبه) مضافا إلى النبي ^ دون تصريح باسم أبي بكر ولا قرينة لفظية تميزه أو تخصصه، ومع ذلك لم يفهم أحد أو يدَّع أن المقصود به أحد غيره !

وما ذلك إلا لأن هذا اللقب أو اللفظ قد صــــار علمًا على أبي بكر وحده فلا يحتاج معه إلى اســـمه الصريح أو قرينة أخرى تدل عليه.

كان أبو بكر قبل الإسلام صفياً لرسول الله ^ يصحبه في حله وترحاله لا يفرق بينهما إلا الليل يأوي فيه كل في بيته. واستمرا على هذه الصـحبة بعد الإسـلام إلى يوم وفاته ^ ، ثم اسـتمرا متجاورين بعد مماتهما إلى اليوم !

تأمل ماذا قالت قريش لأبي بكر يوم صدع النبي ^ بدعوتهم إلى الإسلام قالت: لقد جن (صاحبك)، وصبيحة الإسراء قالوا له: اسمع إلى ما يقول (صاحبك).

ولما عزم علي أن يهاجر قال له النبي ^ : «**على رسلك يا أبا بكر لعل الله يجعل لك صاحبا**». حتى إذا جاءه ليخبره أن الله قد أذن له في الهجرة قال: (الصـحبة) يا رسـول الله! قال ^ : «الصـحبة» [١١]. تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : (ما شعرت قبل ذلك أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي حين أذن له رسول الله ^ في (صحبته).

ألا ما أعظم منزلة هذه (الصحبة)! منزلة تبكي لها الرجال دموعًا! إنها شرف لم يؤثر به الرسول ^ أحداً سوى (صاحبه) الذي اختار (صحبته).

إنها صـحبة المصـير الواحد في أخطر رحلة وأحرج موقف يخلده الله تعالى قرآناً يتلى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾.

الصحبة عارضة ولازمة :

الصحبة صحبتان:

صحبة عارضـة لسبب تزول بزواله كصحبة يوسف عليه السلام لصـاحبي السجن. إنها صحبة فرضـها السجن الذي جمعهم فما إن خرجا حتى نسياه وما ذكره أحدهما إلا بعد بضع سنين! وصحبة الرجلين المذكورين في سورة (الكهف) إذ جمعتهما التجارة وكان المؤمن ناصحًا لصاحبه مخلصًا في نصيحته فلم يداهنه على كفره بل بين له حقيقة حاله ودعاه إلى الإيمان بصراحة ووضوح. وهذا هو الواجب في حقه، وهو خير - ألف مرة - من آخر يصحب كافرًا طيلة حياته فلا ينصحه ولا يدعوه إلى ترك ما هو عليه. وتستمـــر الصحبة بينهما إلى الممات وهو يجامله ويداريه! كيف يتصور مثل هذا من رسول الله ^مع (صاحبه)!! ألا ساءت الظنون وانتكست القلوب !

(١١)رواه البخاري.

وكما فعل الرجل المؤمن مع صاحبه الكافر من الدعوة والنصيحة كذلك فعل يوسف ﷺ مع صاحبيه إذ قال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ * مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف:٣٩،٤٠].

٢- صحبة لازمة لاستنادها إلى سبب دائم لا يزول كصحبة رسول الله ^ لأبي بكر الصديق ﷺ. ولو كانت كصحبة الرجلين في سورة الكهف كما يقول المتهوكون[١٢]. لانقطعت وما دامت إلى الأبد. ثم كيف يساء الظن برسول الله ^ ! أيتخذ النبي له صاحباً ثم لا يكون هو خير الأصحاب! ألا يحسن الاختيار؟ أم اختاره لأسباب دنيوية عارضة؟ فكيف دامت صحبتهما طيلة هذه المدة وهو لا ينصحه ولا يردعه! أرأيت رجلاً مصاحباً لرجل صحبة دامت سنين طويلة ثم تبين لك أن مصالح دنيوية جمعت بينهما، وأن الرجل الثاني كان سيئاً في ذاته وأخلاقه ونواياه دون أن يكون ذلك السوء سبباً دافعاً لصاحبه أن يردعه أو ينصحه أو - على الأقل - يتركه. ألا تشك في صلاح الأول؟

أهكذا الظن بصفوة الرسل وخيرة الخلق وهو القائل: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي» ؟! ولا شك أنه ليس المقصود بالنهي الصحبة العارضة.

لقد كانت صحبة النبي^ لـ«صاحبه» صحبة الدين ، والغايات العظيمة السامية. ولذلك قال^: «**لوكنت متخذاً خليلا لاتخذت ابن أبي قحافة خليلاً**» [١٣]. وكذلك هي صحبة المشابهة والمشاكلة النفسية والأخلاقية والفكرية – ولا بد - يقول النبي^ : «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**» [١٤].

ولذلك اختاره رفيقاً له في الهجرة و«صاحبًا» يؤنس وحدته ويبدد وحشته، ولولا هذه المشابهة والمشاكلة، والراحة والميول النفسية المتبادلة لما اختار صحبته في تلك الرحلة الخطرة الموحشة.

إن المسافر سفراً عادياً يستغرق ساعة أو ساعتين لا يطيق أن يصحب في سفره القصير هذا إلا من ترتاح إليه نفسه ويطمئن فؤاده، فكيف برحلة شاقة عصيبة طالت أياماً ثلاثة منها في غار موحش في جبل منقطع عن العمران ! إنها صحبة رجل الملمات والمهمات الصعبة ، كما هي صحبة الإنسان للإنسان الذي ترتاح إليه النفس وتأوي إليه آمنة مطمئنة. وإلا فإن الأمر كما قال الشاعر العربي:

وقائلٍ كيفَ تفارقتُما	**فقلتُ قولاً فيه إنصافُ**
لم يكُ مِن شَكلي ففارقتُهُ	**والناسُ أشكالٌ وآلافُ**

ولو لم يكن أبو بكر ﷺ من شكل النبي ^ لما كانت صحبتهما صحبة العمر كله، بل صحبة استفرغت الحياة.. ثم اتصلت بعد الممات!

٢- آثار الصحبة وتجلياتها :

للصحبة آثارها في أخلاق الأصحاب وسلوكهم نتيجة تفاعل الصاحب مع صاحبه وتأثره بأخلاقه وتصرفاته. وكلما كانت الصحبة أصدق، والنفس أصلح وأكثر استعداداً للتأثر تجلت أخلاق الصاحب في صاحبه أكثر، حتى يمكن أن يكون صورة أخرى له تعكس ما في صورة الأصل من قسمات وملامح لأن الأثر يعتمد على قوة المؤثر وعلى مدى صلاحية المحل للتأثر.يقول النبي ^ : «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**» [١٥].

---

(١٢)انظر مثلا تفسير المخذول عبد الله شبر عند تفسير آية الغار في سورة التوبة.
رواه الترمذي وأحمد وأبو داود وغيرهم. قال المناوي – كما جاء في تحفة الأحوذي - : أسانيده صحيحة.
(١٣)متفق عليه.
(١٤)متفق عليه.
(١٥)رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسن غريب.

ويقول الشاعر العربي القديم:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

برزت آثار صحبة الصديق ﷺ للنبي^ واضحة المعالم في علمه وإيمانه وفي سلوكه وأخلاقه. وكانت معالم هذه الآثار من البروز والوضوح ما يشكل دليلاً قاطعاً على صدق هذه الصحبة وقوة عراها وسمو مقاصدها وعلو منزلتها.

معالم تجلي آثار الصحبة :

وسأتكلم- بإيجاز - عن معلمين من معالم هذه الآثار: المعلم الأول عن تجلي هذه الآثار في علم الصديق وإيمانه. والثاني عنها في أخلاقه وسلوكه.

المَعْلَم الأول :

- تجلي أثر (الصحبة) في علم الصديق وإيمانه .

- تقديم النبي ^ الصديق في الصلاة .

- كان أبو بكر الصديق ﷺ أعلم الصحابة.

قدمه النبي ^ ليصلي بالناس في مرض موته. وهذا دليل جلي على أن النبي كان يراه أعلم الصحابة وأقرأهم لكتاب الله تعالى. ولولا هذه (الأعلمية) لما قدمه عليهم وفيهم خيرة السابقين الأولين كعمر الفاروق وعثمان ذي النورين وأبي عبيدة بن الجراح وعلي وطلحة وابن مسعود وأبي بن كعب وأمثالهم ﷺ.

وقد صح عن النبي ^ قوله :«**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله**» (١٦). فأبو بكر هو الأقرأ – بين الصحابة طراً – لكتاب الله بشهادة النبي ^ وتزكيته العملية. وكفى بذلك شهادة وتزكية!

والأقرأ في لغة النبي^ تعني الأعلم فإنهم كانوا يسمون العلماء أو الفقهاء بـ«القراء».

مظاهر تجلي علم الصديق :

وقد تجلى علم الصديق ﷺ في المواقف الحرجة التي تذهب بألباب الحكماء ، ويحتار عندها الحلماء ! وكان لذلك مظاهر أبرزها ثلاثة هي:

المظهر الأول: موقفه من الاختلاف في وفاة النبي ^:

فمن تجليات علم الصديق التي بذ فيها الأقران ما كان يوم وفاة النبي ^ وقد اختلفوا في موته: هل مات حقًّا ام لا ؟ وكانوا مضطربين مذهولين لا يعرفون كيف يعالجون الموقف ، وقد غص المسجد بالناس وعمر بن الخطاب يلوح بسيفه طاش عقله من الهول يقول: (والله ما مات رسول الله) (١٧)! وعثمان وعلي أقعِدا يبكيان لا يستطيعان القيام!

الكل في حيص بيص وليس من منقذ !

حتى إذا جاء كبيرهم وإمامهم رجع كل شيء إلى مكانه ، وانتظم عقد أمورهم كأنهم كانوا معه على ميعاد ! هدأت الأرواح وخشعت الأصوات واشرأبت الأعناق، وتعلقت الأبصار بهذا الذي ارتقى منبر رسول الله ، وأصاخت الأسماع تتلهف إلى سماع ما يقول ويقرر ويحكم فيفصل !

---

(١٦)رواه مسلم وغيره.
(١٧)رواه البخاري.

كلمة واحدة وآية واحدة :

وبكلمة واحدة وآية واحدة أزال الاضطراب وعالج الموقف !

أما الكلمـة..

فقوله ﷺ : (أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات!! ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت).

وأما الآيـة..

فقولـه ﷻ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٤] تلاها عليهم فإذا بهم يرددونها خلفه كأنها نزلت لتوها أو كأنهم لم يسمعوا بها من قبل !!

يقول عمر: (والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض) [١٨].

اختيار الصديق للآية دليل على عظيم فقهه ودقة نظره :

إن اختيار أبي بكر ﷺ لهذه الآية في هذا الموقف دليل على عظيم فقهه وعلمه ودقة نظره وبعد غوره. إنها الآية التي نزلت – قبل بضع سنين - علاجاً لموقف مشابه تعرَّض له الأصحاب في (أُحُد) يوم أشـيع أن محمداً قد قتل ! فحصـل ما حصـل من الاضـطراب – على ما هو مفصـل في الكتاب والسـيرة - فنزلت الآية تعالج هذا الخلل الذي تكرر يوم مات محمد ^ حقاً؛ فعالج الصـديق الداء نفسـه بالدواء نفسـه فكان الشـفاء التام بإذن الله . وتجاوز الصـحابة الموقف حين سـمعوا الآية تتلى عليهم فتذكروا ما حصل لهم يوم أحد، فكانت استجابتهم سريعة، استفادةً من تجربة سابقة مشابهة أعادها إلى أذهانهم ذكاء الصديق حية حاضرة حين طرق أسماعهم بتلك الآية العظيمة الباهرة والمؤمن (لا يلدغ من جحر مرتين) [١٩]!

لقد كان عمر وعثمان وعلي وغيرهم يحفظون الآية ، ويرون الخلل، ويعيشـون الموقف، فلماذا لم يرتقِ واحد منهم المنبر ليتلو الآية ويتكلم بما يناسب المقام لتلتئم الأمور وتستقر الحال ؟

لم يكن واحد منهم هو صـاحب الموقف. الكل يعلم - أو يحس - أنه (ليس لها) وأبو بكر في الوجود فهم ينتظرونه كما ينتظر أفراد العائلة كبيرهم الغائب ويترقبون مجيئه عند موت والدهم فلا يجرؤ أحد على حسم الأمور والبت فيها دونه .

عاش للأمة :

وحين تستعيد الموقف تجد أن الكل عاش عواطفه وأحاسيسه الخاصة وعبر عنها كما يشاء ، إلا أبا بكر! فإنه كتم عواطفه وكانت أرقها، وأحاسيسه وكانت أرهفها، وانفعالاته وكانت في أوج ثورانها !

إن الفقيد (صاحبه) !

لقد تصـرف كما يتصـرف كبير العائلة عندما تفقد ربها فيتصـبر ويتجمل ويتظاهر بالجلد وإن كان أكثرهم تأثراً وأعظمهم مصيبة! لماذا؟ حتى لا تنهار العائلة.

كل فرد منهم يعيش لنفسه وعواطفه : هذا يبكي.. وهذا يصرخ..

---

(١٨)روى البخاري المشهد بتمامه.
(١٩)متفق عليه.

وذلك قاعد منزوٍ.. وغيره يلطم، وآخر يهتف.. إلا كبيرهم؛ إنه يعيش لهم فهو لا ينفعل.. ولا يفعل مثلهم!

وكذلك فعل أبو بكر!

لقد عاش ساعتها للأمة كي لا تنهار . ولو رأيته لرأيت (الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب)! ولولا ذلك لاستمر الاضطراب، واشتدت دوامة الحزن فعصفت بالأمة فلم تفق إلا على الأنصار وقد بايعوا وانفردوا بالأمر ووقعت الواقعة !

رجل المواقف الصعبة :

لكن أبا بكر – وأبا بكر لا غيره – حسم الأمرين معاً. ولو تأخر حسمُ الأمر الأول لما حسم الأمر الثاني.. ولِصالحِ المهاجرين.

المظهر الثاني: موقفه في البيعة :

فما إن انتهى أبو بكر من علاج الموقف العصيب الأول حتى سارع – وقد جاءه الخبر بأن إخوانهم الأنصار قد اجتمعوا ليبايعوا سعد بن عبادة ﷺ – ليعالج موقفاً استجد عصيباً لا يقل عن سابقه!

وكان لعلمه ﷺ بالنفوس وفن التعامل معها ، والقلوب وكيف يُتمكن منها. وعلمه بالشرع أصولاً وفروعاً، ومعرفته بكيفية صياغة القول وإلقاء الخطاب. ولسابقته و(صحبته) الدور الفاعل في حسم أكبر مشكلة تواجه الدول الناشئة وتهددها بالزوال أو الانقسام: ألا وهي ولاية الأمر بعد المؤسس الذي غادر الحياة. وكان مما قاله في السقيفة المباركة : (يا معشر الأنصار إنكم لا تذكرون فضلاً إلا وأنتم له أهل وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش . هم أوسط العرب داراً ونسباً. لقد سماكم الله في كتابه بالمفلحين وسمانا بالصادقين والله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء وإني رضيت لكم أحد هذين الرجلين) وأخذ بيدي عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح. لكن عمر حسم الأمر فقام وقال لأبي بكر: بل نبايعك أنت فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله . وأخذ بيده فبايعه وبايعه الناس(٢٠).

لولا الصديق لما وصلت الخلافة إلى علي :

وعادت الأمور إلى نصابها فكانت الخلافة في المهاجرين ، والوزارة في الأنصار. وصارت سنة ماضية لا يعترض عليها أحد. فلولا أبو بكر لكانت الخلافة في الأنصار – هذا إذا بقيت خلافة – ولما وصلت إلى عمر، ولا كان علي في يوم من الأيام خليفة على المسلمين! فجزاه الله عن علي وعمر وعثمان وعموم المهاجرين وجميع الأمة خير الجزاء.

الرجال بالمواقف لا بالعواطف :

إن الرجال لا تقاس بالانفعال والعواطف، وإنما بالفعال والمواقف. ولولا موقف أبي بكر عند وفاة النبي ^ لما استفادت الأمة مثقال جناح بعوضة من عواطف عمر ودموع علي ، ولكانت البيعة في الأنصار ، ولاضطربت الأمور واختلف الناس ! لا سيما وأن أكثر القبائل أعلنت العصيان ووقع بعضها في الارتداد، وتململ الروم واستغل الفرس الفرصة فعبروا الخليج ودخلت جيوشهم البحرين وانضمت إلى تحشدات المرتدين.

ولولا أن منَّ الله على الأمة بأبي بكر لتصدع بناؤها وانهارت وحدتها وصارت طعمة للطامعين. ولهذا قال عمر بن الخطاب ^ وهو يقبل رأسه: (لولا أنت لهلكنا) . وقد روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ^ ذات غداة بعد طلوع الشمس فقال: «**رأيت قبيل**

---

(٢٠)رواه البخاري.

الفجر كأني أعطيت المقاليد والموازين. فأما المقاليد فهذه المفاتيح، وأما الموازين فهي التي تزنون بها. فوضــعت في كفة ووضــعت أمتي في كفة فوزنت بهم فرجحت. ثم جيء بأبي بكر فوُزِن بهم فوَزَن. ثم جَيء بعمر فوُزِن فوَزَن. ثم جيء بعثمان فوُزِن بهم. ثم رُفعت».

نعم ! لقد كانت الأمة يومها أبا بكر وكان أبو بكر هو الأمة. فلو ضــعف أو تردد، أو التبســت عليه الأمور لانهارت وتفتتت وصارت في خبر كان!

المظهر الثالث: قتال المرتدين ومانعي الزكاة

والموقف الثالث العويص فقهياً والعصــيب عملياً وعســكرياً – الذي تجلى فيه علم أبي بكر كالبدر يجلو الليلة الظلماء، وإيمانه كالجبال التي لا تهزها الأعاصير – هو يوم أن عارضه الصحابة في قتال مانعي الزكاة ! فقد قال له عمر ﷺ : يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رســـول الله ^: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصـــم مني ماله ونفســـه إلا بحقه وحســـابه على الله**»؟ قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرَّق بين الصـــلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال لو منعوني عَناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ^لقاتلتهم على منعها(٢١). ثم تلا قوله تعالى:﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ [التوبة:٥] (٢٢).

لقد استند أبو بكر الصديق ﷺ إلى النصوص القرآنية وفهم من الحديث النبوي ما لم يفهمه من وقف عند ظاهره فغاص فيه واستخرج من جواهره وإن لم تكن قريبة المنال!

إن عمر بن الخطاب ﷺ من عظماء المجتهدين الذين تميزوا في صـــدر الأمة، وهو محدث مســـدد بشهادة النبي^، وقد احتج بحديث حسبه له فإذا به يكون عليه! فيا لله أبو بكر من رجل يقلب حجة عالم مجتهد كعمر فإذا بها ترتد عليه وقد كانت سلاحاً في يديه!

***

نظر بعيد في الدين والسياسة :

لقد كان الصديق - وهو يتخذ قراره العسكري بقتال مانعي الزكاة وعدم التفريق بينهم وبين المرتدين - بعيد النظر من الناحيتين الدينية والسياسية!

إن التساهل في ترك ركن من أركان الإسلام يؤدي - ولا بد – إلى ترك ركن آخر احتجاجاً بالأول ، وهكذا سيأتي جيل يترك الصيام وآخر يترك الصلاة ورابع يترك الحج والجهاد ... إلخ فإذا بالدين قد انهدم. فلابد من سد باب الفتنة وبابها إقرارهم على ترك أداء الزكاة. هذا من الناحية الدينية.

وللزكاة جانب سياسي لا يخفى على رجال الحكم والسياسة.

إن لكل حكومة على رعيتها التزاماً مالياً اعترافاً بنظامها السياسي. إن الامتناع عن أدائه إعلان عن العصيان والتمرد على النظام وعدم الاعتراف به . ولا اعتماد على رعية أو شعب ، إذا كانت علاقته مع حكومته على هذه الصورة.

---

(٢١)متفق عليه.

(٢٢)أول الآية : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ ﴾ الآية.

لقد كان الصـديق - وهو التلميذ النجيب لأعظم حاكم سـياسـي في التاريخ - يدرك تمام الإدراك أن الامتناع عن أداء الزكاة إعلان عن عدم اعتراف الممتنعين بالنظام السياسي لحكومته، فإذا أقرهم عليه فقدت حكومته هيبتها، وكانت الرعية الممتنعة أكثر جرأة على عصيانه في أمور أخرى لا سيما الجهاد

وقتال الكافرين. وهكذا تنهار الحكومة وتتفكك الدولة، بعد أن انهار الدين وانهدمت أركانه!

لقد أدرك الصديق ذلك كله بثاقب نظره، فلم تستفزه المصالح الوقتية القريبة عن المصالح الحقيقية الدائمة. وما ذلك إلا لرسوخ علمه وقوة إيمانه الذي تميز به على بقية الأصحاب. فمن منهم أولى منه بالحكم وإدارة شؤون الخلافة والسياسة؟!

وهكذا اسـتطاع أبو بكر الصـديق ﷺ أن يقضـي على أكبر فتنة عصـفت بالأمة فتنة الارتداد والعصيان والحروب الأهلية. ولو فشل في القضاء عليها لانطلقت من عقالها ودمرت كل شيء. يقول ابن مسـعود ﵁ : (لقد قمنا بعد رسـول الله ^ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن منَّ الله علينا بأبي بكر) لكن الأمة – بحكمة أبي بكر وثاقب نظره وعلو همته وشـدة عزيمته، وقوة إيمانه ويقينه بربه- خرجت من هذه الفتن سليمة معافاة قوية متحدة بحيث تمكنت بعد ذلك مباشرة من أن تضرب أكبر إمبراطوريات العالم آنذاك: فارس فتدكها وتهدمها، والروم فتقهرها وتهزمها!!

المَعْلَم الثاني

تجلي أثر (الصحبة) في أخلاق الصديق وسلوكه :

جاء عن النبي ^ أن أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة حسن الخلق(٢٣). فمن فاز منه بالسهم الأوفر كان الأفضل بين الأمة. وأبو بكر الصديق أحسن الأمة خلقاً بعد رسول الله ^ . ودليلنا القرآن.

إن أخلاق أبي بكر تقرن بأخلاق النبي ^ وتقارن بها ! إذ هما الوحيدان - من الأمة - اللذان أرشدهما القرآن بالخصوص إلى أعلى محاسن الأخلاق وأرقاها ، ولا شك أن التحلية بالكمالات لا تكون إلا بعد الاتصاف بالضروريات والأساسيات.

إن وجود حديقة جميلة تزهو بأجمل أنواع الورود وألوانها، وقد نظمت تنظيماً يخلب الألباب، وفيها من الأطيار والبلابل المغردة ما تطرب له الأسـماع وتأنس الأرواح، لا يتوقع الرائي أن هذا كله تابع لبناية خربة من طين! لا بد من توقع رؤية قصر كبير!

وإنك لن تنصح أحداً بقيام الليل وهو لا يؤدي الصلاة المكتوبة! والإتيان بالفاكهة على المائدة دون طعام ترف لا يغني الجائعين.

والزينة لا تكون إلا بعد توفر عناصر الجمال، ولا توضع على محل ملوث بالأوساخ، وإلا كانت سـفهاً، ولذلك قال الله تعالى يخاطب الصـحابة ﵃ : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات:٧] فالتزيين بعد التحبيب، ولا قيمة للزينة بلا حب. إن الحب أصـل والزينة كمال. ووجود الكمال لا يكون إلا بعد وجود الأصل عند العقلاء.

وللأخلاق أصـل وقاعدة كما أن لها زينة وكمالاً وحسـنا وجمالا ، ولا يطالب بمحاسـن الأخلاق وكمالاتها من لم ينته من أصولها وأساسياتها.

والآن نأتي إلى حسـن أخلاق الصـديق ﵁ وجمالها وزينتها وكمالها، وأمام أنظارنا قول عائشـة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق النبي ^ فقالت: (كان خلقه القرآن) (٢٤). كذلك كان خلق الصديق.

---

(٢٣)روى أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء ﵁ قال: سمعت رسول الله ^ يقول: «**ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق**». قال في (تحفة الأحوذي): أخرجه البزار بإسناد جيد.
(٢٤)رواه الإمام أحمد.

موقفه من مسطح :

كان لأبي بكر الصديق قريب اسمه (مسطح) ينفق عليه ويحسن إليه. فلما خاض المنافقون والذين في قلوبهم مرض في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، خاض مسطح مع الخائضين في عرض أبي بكر ﷺ دون أن يرقب فيه إلاًّ ولا يداً.

وأنزل الله جل وعلا - من بعد - براءة عائشة رضي الله عنها في سورة (النور) ، فحلف أبو بكر أن لا يصل مسطحًا ولا ينفق عليه بعد أبداً. وذلك أقل ما يمكن أن يجازي به رجل من طعن في عرضه الشريف. ولا نعرف أحدًا يمكن أن تسخو نفسه فيستمر بالإنفاق والإحسان إلى من طعن في عرضه وشرفه ! اللهم إلا إذا بلغ من الدرجات أعلاها في حسن الخلق وكرم النفس، وأسماها في إنكار الذات من أجل عمل الخير للخير نفسه !

كانت هذه الدرجة العالية السامية هي التي أرادها الله تعالى أن تكون زينة وتاجاً على رأس محاسن أخلاق الصديق فحببها إليه، وزينها في عينيه، ودعاه إليها بقوله الرفيق الشفيق:﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢] . وكان جواب أبي بكر ﷺ حين سمع توجيه الله إليه بواسطة رسوله و(صاحبه) : (بلى يا رب أحب أن تغفر لي) [٢٥]. وعاد إلى مسطح يصله وينفق عليه !!

إن هذا لا يوفق إليه إلا طراز خاص من المؤمنين يقول الله عنهم:﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٤،٣٥]. وما كان الله ليرضى لـ(صاحب) نبيه إلا أن يكون من ذلك الطراز صاحب الحظ العظيم والخلق القويم !

بأبي شبيه بالنبي :

إن هذا يشبه موقف النبي^ من (الأعمى) الذي عرض له يسأله ويلح عليه وهو مشغول بدعوة كبراء القوم ! فعبس في وجهه ولم يرد عليه. وماذا يمكن أن يتوقع منه غير ذلك!

ولو فعل هذا غير محمد ^ لما عاتبه الله ولما كان عليه من بأس:

إن السائل قد تطفل في الكلام وقاطع النبي ^ وهو مشغول بغيره. وكان الأولى به أن ينتظر حتى ينتهي من كلامه، أو ينصرف ليلتقيه في مكان آخر وظرف أليق . ثم إنه أعمى، والأعمى لا يرى عبوس من عبس في وجهه !. لكن الذي ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ هو محمد ^ صاحب الخلق العظيم ولذلك استحق العتاب. وذلك من باب (حسنات الأبرار سيئات المقربين)! والعتاب على قدر المنزلة .

وكذلك لو كان الذي قطع النفقة عن مسطح غير أبي بكر لما كلمه الله في شأنه وكلفه بالعود إلى صلته، لأن التكليف بمعالي الأمور وأحاسن الأخلاق لا يختار الله تعالى لها إلا ذوي القرب والاستحقاق.

مظاهر تجلي حسن خلق الصديق :

وتجلى حسن خلق الصديق ﷺ في مظاهر كثيرة أبرزها ثلاثة. وهي:

---

(٢٥)البخاري.

المظهر الأول: الصدق والتصديق

يكفيه شـــهادة على ذلك تفرده بلقب (الصـــديق) من بين الأصـــحاب، يقول النبي ^ : «**ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**» (٢٦). وقد لقب أبو بكر في الجاهلية -كما لقب محمد- بـ (الصادق) فزاده الإسلام فلقبه بـ(الصديق).

إن العرب قوم معروفون بصـدق الحديث، يسـتحيي أحدهم أن يؤثر عنه شـيء من الكذب. فوجود الصــادق بينهم لا يثير الانتباه ما لم يكن صـــدقه متميزاً لأن عامتهم صـــادقون. فأن يفوز في مجتمع الصادقين شخص بلقب (الصادق) دليل على تميزه في الصدق وبلوغه شأواً عالياً فيه كالبطل المتميز بين الأبطال، والشـــجاع بين الشـــجعان! وهذا كقوله تعالى:﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ﴾ [الأحزاب:٢٣] مع أن كل مؤمن صادق.

وفيـه وفي رســـول الله^ نزل قولــه تعــالى:﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٣٣].

وفيه نزل قوله تعالى:﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٥-٧].

وقولــه:﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحـديـد:١٨] بتخفيف الصاد وهي قراءة متواترة .

لقد كان هذا التصــديق أثراً من آثار صــحبته لرسـول الله ^ فعرفه معرفة الخبير فكان يســارع إلى تصـــديقه دون توقف أو تردد في أي شـــيء مهما كان غريبًا! وكان إذا حاججه المنكرون يقول واثقاً مطمئناً: (إن كان قاله فقد صــدق)؛ لهذا روي أنه ^ قال فيه: «**ما دعوت أحداً إلى الإســلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر**».

والتصديق إذا بلغ هذه الدرجة فهو أثر من آثار الصدق الفطري الذي طبعت عليه النفس وجبل عليه الطبع.

والصــادق لا يدور في نفســه الشـك، ولا يتوقع الكذب قط ممن وثق بهم؛ لأنه يرى فيهم نفســه التي ليس فيها إلا الصدق، فيكون حسنُ الظن تعبيراً عن الخير الذي جبلت عليه النفس.

المظهر الثاني: الشجاعة :

لقد كان أبو بكر الصـديق ﷺ أشـجع الناس بعد رسـول الله ^: لم يتردد في موقف، ولم يضـطرب أو يفر في معركة. بل كان حيث يكون الخطر أقرب الناس إليه. ولذلك اتخذه النبي ^ صـاحباً له في أحرج المواقف وأصـــعب الظروف. فكان في الغار ثاني اثنين، وفي عريش بدر كذلك، وثبت معه في أحد وحنين - إذ قتل حامل لواء المشركين - وجميع المعارك ودافع عنه في مكة فضرب حتى كاد يموت.

أما موقفه - وقد انفرد بعد (صـــاحبه) - من المرتدين ومانعي الزكاة، والجزيرة قد انتقضـــت عليه وصارت قبائلها تغزو المدينة نفسها فهو الموقف الذي تميد له الشيم الرواسي.

وكان أبو بكر الجبل الوحيد الذي ظل راســـياً لم تهزه الزلازل! لقد قرر قتال الدنيا مجتمعة مهما كانت الظروف وبلغت التضحيات وكانت النتائج!

---

(٢٦)رواه مسلم وغيره.

جاءه عمر بن الخطاب ﷺ يقول له: (تألف الناس وارفق بهم) فصـــرخ في وجهه : (أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام! رجوت نصرك فجئتني بخذلانك!) وأقسم بالله ليقاتلنهم حتى يؤدوا الخيط والمخيط ثم قال: (إنه قد انقطع الوحي وتم الدين، أوَ ينقص الدين وأنا حي !!).

ولك أن تتصـــور شـــجاعة رجل يقف لعمر ويصـــرخ في وجهه ينبزه بالخَوَر! وعمر هو عمر في شجاعته، وسطوته وهيبته !!

يا منٍ رأى عمراً تكســـوهُ بردتُهُ والزيـتُ أَدْمٌ لـه والكوخُ مـأواهُ
يـهتزّ كسـرى على كرسـيّه فَرَقاً من بأسِـهِ وملوكُ الرومِ تخشـاهُ

ثم تفكر في مدى صلابته ورباطة جأشه وثبات قلبه، وقد اجتمع حوله الصحابة ﷺ يرجونه أن يلين فيوافقهم على إرجاع جيش أسـامة ليسـتعينوا به في القتال، ويذكرون له حراجة الموقف وتغير الظرف فما يزيدونه إلا عزما ومضـاء! ويقسم أن لن يحل عقدة عقدها رسول الله بيده ولن يرجع جيش أسـامة ولو رأى الكلاب تجري بأرجل أمهات المؤمنين في سكك المدينة!

رجل بلغ في الإيمان مداه! وفي الشجاعة مداها!

أخرج البزار في مسـنده عن علي ﷺ أنه قال: أخبروني من أشـجع الناس؟ قالوا: أنت. قال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع الناس. قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر ، إنه لما كان يوم بدر فجعلنا لرســول الله ^ عريشـــاً فقلنا: من يكون مع رســـول الله لئلا يهوي إليه أحد من المشركين فوالله ما دنا منا أحد إلا أبا بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله ^ لا يهوي إليه أحد إلا هوى إليه فهو أشجع الناس. ولقد رأيت رسول الله ^ وأخذته قريش فهذا يجبأه وهذا يتلتله وهم يقولون : أنت الذي جعلت الآلهة إلها واحداً؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبا بكر يضـــرب هذا ويجبأ هذا ويتلتل هذا وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟! ثم رفع علي بردة كانت عليه ثم بكى حتى اخضلت لحيته ثم قال : أنشـدكم الله. أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم فقال: ألا تجيبوني؟ فو الله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة مثل مؤمن آل فرعون! ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه [٢٧].

المظهر الثالث: الإنفاق والكرم :

الشجاعة والكرم توأمان مقترنان فكل شجاع كريم وكل كريم شجاع سجية.

لقد كان أبو بكر متميزاً في إنفاقه وكرمه . حتى لقد جعل القرآن الكريم من ذلك العلامة والنقطة الدالة عليه فقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٦،١٧]، وقال قبلها:﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧] فأول صفة له وعلامة عليه الإعطاء والكرم.

أخرج الحاكم وابن أبي حاتم والبزار في أســـباب نزول قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ وما بعدها: أعتق أبو بكر الصـديق سبعة كلهم يعذب في الله تعالى منهم بلال وعامر بن فهيرة، ومنهم بعض نساء أسلمن فكن يعذبن على إسلامهن فقال له أبوه أبو قحافة : أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون ويدفعون عنك دونك ؟ فقال : يا أبت إني إنما أريد ما عند الله فنزلت في أبي بكر: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ الآيات إلى آخر السورة[٢٨].

---

(٢٧)أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة / ١٥ ، رفيق العظم.

(٢٨)أسـباب النزول في حاشـية روائع البيان لمعاني القرآن/ أيمن عبد العزيز جبر. وسـيأتي – إن شـاء الله تعالى – مزيد بيان لإثبات نزول هذه الآيات في حق الصديق ﷺ .

لقد أنفق الصديق أمواله وسخر تجارته في مكة في سبيل الله حتى لم يبق له يوم الهجرة من رأسماله البالغ أربعين ألفاً في أول دخولـــــه الإسـلام وأرباحه معه إلا خمسـة آلاف أخذها معه وما أبقى لأهله درهماً!

ومن مواقف كرمه وإنفاقه المشـهودة ما كان منه عند تجهيز جيش العسـرة المتوجه إلى تبوك وهي آخر غزوة غزاها رسول الله ^ إذ أنفق يومها أبو بكر ماله كله! حتى قال له رسول الله ^: «**ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر**» ؟ فأجابه: أبقيت لهم الله ورسوله[٢٩]!!

وشهد له النبي ^ فقال : «**ما نفعني مال كما نفعني مال أبي بكر**» [٣٠].

التجلي الثاني لخصائص الصديق في آية الغار: تفرده بالمعية الخاصة

إن قوله تعالى:﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ عبارة عن حكاية الله لقول النبي ^ خطاباً لأبي بكر. وقد روى الإمام البخاري رحمه الله بسنده عن أنس قال: حدثني أبو بكر ﷺ قال: كنت مع النبي ^ في الغار فرأيت آثار المشــركين قلت: يا رســول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا. قال: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!**».

والآية تصدق الرواية، والرواية تشرح الآية. وكلاهما من مشكاة واحدة.

والناظر المتأمل يجد إخباراً من النبي ^ موثقاً من الله تبارك وتعالى بأن القائل - وهو رســول الله - و(صـــاحبه) - وهو أبو بكر – محفوفان جميعاً بمعية الله ، وأن الله تعالى معهما : يحفظهما ويكلأهما ويدفع عنهما كيد الكائدين وغائلة المشركين.

وهذا التعبير السماوي عن المعية لم نجد له شبهاً في القرآن الكريم ولم يرد لاثنين بخصوصهما إلا لمحمد ^ وأبي بكر ﷺ ، وإلا لموسى وهارون عليهما السلام.

والأمر يحتاج منا إلى وقفة مناســبة نبســط فيها الكلام عن حقيقة هذه المعية وأنواعها أولاً، وعن تجليات آثارها ثانياً:

١. **المعية وأنواعها** : (المعية) عامة وخاصة وأخص :

المعية نوعان : عامة وخاصة

فالعامـة كما في قوله تعالى:﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة:٧]. وهذه شـاملة لجميع الخلق: مؤمنهم وكافرهم. وهي معية العلم وما في معناه. ولا فضل فيها لأحد .

إنما الفضـل في المعية الخاصـة كما في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣]، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨] وهي معية التأييد والحب والرعاية والحفظ .

وهناك معية أخــــص، فهي أدل على الفضل من المعية الخاصة؛ لأن الفضل كلما كان أخص كان أدل على أفضـلية من اختص به على غيره. كما لو كرّم الأمير جيشــه المنتصــر، ثم كرم قائد الجيش تكريماً خاصـاً وأشــرك معه في هذا التكريم جندياً آخر واحداً معه: فهذا دليل على تميز ذلك الجندي، وإلا لما قرنه الأمير بالقائد وخصهما معاً بالتكريم دون الآخرين.

---

(٢٩)رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(٣٠)رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد.

فقوله تعالى توثيقاً لما أخبر به نبيُّه ^ صــاحبَه أبا بكر ﷺ : ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾لا يدخل فيه أحد سواهما. إن هذه المعية كانت لاثنين فقط هما النبي ^ وصاحبه أبو بكر ﷺ ؛ فهو أفضل الأمة بعد رسـول الله ^ وأولاهم بالإمامة ومنصـب الخلافة. كذلك فإن هذه المعية هي معية ذات غير مرتبطة أو معللة بصفة أو سبب. وهذه أبلغ مما لو كانت معلقة على صفة معينة.

معية الله لموسى عليه السلام دون قومه :

لقد تعرض موسى ﷺ وقومه إلى موقف عصيب مشابه لموقف النبي ^ وصاحبه ﷺ في الغار. لقد طاردهم فرعون وجنوده حتى حصـــروهم أمام البحر وألجأوهم إليه فلم يكن لهم من منفذ! ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء:٦١].

الموقف واحد والصـورة متشـابهة: هنا موسـى وقومه محصـورون أمام البحر، وحولهم فرعون وجنوده. وهناك محمد وصاحبه محصوران في الغار، وأبو جهل وجنوده محيطون بهما.

لكن.. تأمل كيف عبر القرآن عن كل من الموقفين؟ وكيف رسم كلاً من الصورتين؟!

لقد استعمل مع موسى لفظ : ﴿أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ ومع محمد لفظ (صاحبه). و(صاحب) محمد ^ هادئ النفس مطمئن الضمير سوى أنه حزين أو يقارب أن يكون كذلك، فيواسيه صاحبه رسول الله^ويخفف من حزنه قائلاً: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾. أما ﴿أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ فكانوا خائفين هلعين آيســين لا أمل عندهم في النجاة : (إنا لمدركون)! فيجيبهم صاحبهم: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾.

انظر! لقد قال موسـى ﷺ : (معي) ولم يقل: (معنا) كما قال النبي ^ لصـاحبه: ﴿ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾فنجاة أصحاب موسى لا لأن الله معهم، وإنمـــا إكراماً لموسـى ﷺ وتبعاً له. بينما كانت نجاة الصديق ﷺ صاحب النبي ^ بالمعية الإلهية لا بالتبعية النبوية فقط! فالله مع النبي ^ وصـاحبه، بينما هو مع موسـى دون أصحابه.

وقال: (إن معي ربي) بينما قال النبي ^ : ﴿ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾. فمعية موســى معية ربوبية، ومعية محمد وصـــاحبه معية ألوهية، والألوهية أكمل فما تعلق بها كذلك. ومعية الربوبية فيها تعلق والتجاء وطلب مع خوف وقلق. أما معية الألوهية ففيها التعلق والتفويض المحض مع الطمأنينة والثقة واليقين.

وتـأمـل كيف أن (معيـة) موســى ﷺ تقـدم فيهـا ذكر مـا للنفس على ذكر الرب: ﴿مَعِىَ رَبِّى ﴾.! (ومعيـة) محمـد ^ و(صـــاحبـه) تقـدم فيهـا ذكر الله علـى مـا للنفس: ﴿ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾. وهذا أقرب للطمأنينة والثقة واليقين والتعلق الخالص من كل حظ للنفس وإن كان مطلوباً مشروعاً.

والنظم على كل حال أبلغ وأدل على الفضل، والنبي ^ و(صاحبه) يشتركان فيه!

***

بين الحـزن والخـوف :

لم يرد في الآية الكريمة أن أبا بكر ﷺ كان خائفاً رغم أن الموقف موقف خوف أكثر منه موقف حزن. وإنما ورد فيها ذكر الحزن. والحزن غير الخوف: الحزن على أمر واقع، والخوف من أمر متوقع. فما يقال من أن أبا بكر ﷺ كان خائفاً مضـــطرباً لا أصـــل له، ولا دليل عليه ســـوى الدعوى العارية.

وحتى لو افترضـــنا أن التعبير جاء بلفظ (لا تخف) دون (لا تحزن) فليس في ذلك من عيب أو قدح لأسباب عديدة منها :

١ – إن قـول الـنـبـي ^ لصــــاحـبـه : لا تـحـزن إن الله مـعـنـا لا يـبـقـي لـلـخـوف قـدحـاً ما دام أن الله مع الخائف. فيكون كقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام :﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦].

٢ – إن الخوف انفعال نفســـي طبيعي لا عيب فيه لذاته. وإنما يذم إذا زاد عن حده، أو اقترن به ما يشين ، وإلا فكل إنسان يخاف حتى الأنبياء عليهم السلام كما أخبر الله تعالى عن موسى عليه السلام بقوله:﴿ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ ﴾ [الشعراء:٢١]، وقوله : ﴿ وَلَهُمۡ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴾ [الشعراء:١٤] ، وقوله :﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [النمل:١٠]، وغيرها من الآيات. وكما خاطبت الملائكة لوطاً عليه السلام : ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ ﴾ [العنكبوت:٣٢].

٣ – إن صـيغة النهي لا تستلزم وقوع المنهي عنه إلا بدليل منفصل. وذلك كقوله تعالى لنبيه ^ :﴿ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الكهف:٢٨]. وكما توصـــي ابنك تقول :لا تكذب ، لا تســـرق ...إلخ. إن هذا مجرد تحذير لا يســـتلزم وقوع المنهي عنه وهو الكذب والســـرقة ..إلخ. بل هو أدعى لعدمه.

فلو افترضنا أن النص جاء هكذا: (لا تخف إن الله معنا) لما دل على تحقق وقوع الخوف. فكيف ولا ذكر للخوف فيه! إنما هو الحزن! وهو كقوله تعالى لنبيه محمد ^: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِى ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ [النحل:١٢٧].

عريش بـدر :

وتفرد الصديق بصحبة النبي ^ في هذا الموقف العصيب هو كتفرده بصحبته في عريش بدر، وقد اختاره ^ من بين جميع أصحابه وفيهم عمر وعلي والزبير وغيرهم من الصناديد ، فلم يكن معه غيره فيه !

نزول السكينة والتأييد :

ومن العنت – بعدُ – البحث عن منافذ للتخلص من قبضـة سلطان الآية والتفلت من أحكامها كالقول بأن نزول السـكينة والتأييد جاء بضـمير الإفراد فلا يشـمل أبا بكر ؛ فإنه عاطل عن الدليل، بله الذوق اللغوي العربي .

إن كلام الرب لا يتناقض !

إنه – سبحانه – أكد إخبار النبي ^ لصاحبه بأن الله معهما جميعًا. والمعية هنا إن لم تكن معية الحفظ والسكينة والتأييد فلا معنى لها ولا علاقة لها بنفي الحزن . وعلى هذا فلا يعقل أن يكون ما بعدها نافياً لما قبلها وإلا حصل التناقض، وهو مستحيل في كلام الرب. ولا أن يكون الرب مع من يكون معه لكنه لا يحفظه ولا حظ له من تأييده وسكينته! فإن هذا في غاية التناقض! وكذلك يكون النبي ^ – وحاشاه – كاذباً في الإخبار، وهو ممتنع أيضـا. أو يكون كلاهما قد استعمل (التقية) والقول بذلك سخف وكفر ! فلم يبق إلا تصـديق النبي ^ في إخباره أن الله تعالى مع أبي بكر ﷺ كما هو معه، فالسـكينة والتأييد لكليهما معاً لأن الله معهما جميعاً.

هذا من حيث الإجمال.

أما من حيث التفصـيل فنقول: إن المقصـود بكلام الرب أصـلاً هو النبي ^ وليس أبا بكر؛ فقد بدأ الكلام هكذا: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بضـمير الإفراد، فلا بد أن ينتهي كذلك بضمير الإفراد. وهكذا كان: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾. أما ذكر أبي بكر ﷺ فقد جاء معترضاً في وسط العبارة من كلام النبي ^ وليس من أصل كلام الرب ، إنما حكاه الله عنه حكاية بقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾. فلما انتهى الكلام المعترض المحكي عن النبي ^ اتصل كلام الرب فكان بالإفراد كما بدأ بالإفراد ليتسق الكلام ، وإلا خرج عن مقتضى البلاغة وكان في الكلام زيادة –وهو ضمير التثنية- لا تأتي بفائدة ؛ إذ شمول الصاحب بما يكرم الله به صاحبه محسوم سلفاً بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾فهو معه في كل شـيء. وكما أنه شـاركه في المخاطر والغرم فهو شـريكه في المكارم والغنم؛ فلا داعي للإتيان بضمير التثنية لأداء هذا المعنى. فكان التعبير بضمير الإفراد لدلالة ما قبله عليه. وما لا داعي له ولا فائدة منه زيادة لا محل لها في كلام الرب جل وعلا .

٢- آثار المعية وتجلياتها :

المعية والتفرد بالفضائل (الخصائص) :

إن أفضلية الصديق ﷺ على بقية الصحابة ﷺ لا تتجلى في تفوقه عليهم عند المقارنة فحسب، وإنما تتجلى حقًّا حين تلاحظ من زاوية أخرى أجل وأسمى ألا وهي: اقترانه بالنبي ^ ومشاركته المتفردة له في (المعية الإلهية).

وتأمل لفظ (ثاني اثنين) في الآية: إنه ينطبق على أبي بكر ﷺ فهو ثاني اثنين، وكذلك على النبي ^ فهو ثاني اثنين. وهذا كما قال تعالى عن نفسـه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة:٧]، أي هو واحد من أربعة، لا أنه – سبحانه – الرابع ترتيباً.

فأبو بكر ﷺ واحد من اثنين خصـهما الله تعالى بمعيته. فهو الأول على الصـحابة ﷺ والمقدم فيهم لا لسـبقه إياهم – وإن كان هذا حاصـلاً تحصـيلاً – وإنما لكونه الثاني بعد رسـول الله ^ . هذه هي علة التقديم. أما سبقه الصحابة فهو – كما أسلفت – تحصيل حاصل.

ولما كان أبو بكر ﷺ كذلك - أي أنه الثاني بعد رسول الله ^ مباشرة - فهو الأول تلقائيًّا في غيابه ^ ، دون النظر إلى الغير كائناً من كان ! وهذا ملحظ دقيق، وفرق عظيم !!

إن مثل أبي بكر وأفضـــليته على الأصــحاب كمثل إمامين في مســجد واحد. أما أحدهما فهو الإمام الأصــيل المقدم لعلمه وأهليته ، وأما الثاني فهو وكيله الذي يأتي بعده في المرتبة والتقديم. فحيثما غاب الإمام الأول كان من المتسالم عليه بين المصلين أن الإمام الآخر هو الذي ينوب عنه بلا منازع. نعم لو غاب كلاهما رجعوا إلى أصول الترجيح في تقديم الإمام للصلاة .

إن أولية الثاني عند غياب الأول لا تلحظ من حيث المقارنة ببقية المصــــلين.. وإنما من حيث كونه الثاني أو الوكيل عن الإمام الأول .

وهكذا كان الأمر مع أبي بكر ﷺ في أفضليته وإمامته. وهي منزلة لم تتأتَّ لأحد غيره من الصحابة ! لقد كان خيرة الأصــحاب بعد الصــديق – أي عمر بن الخطاب – يجهد نفســه – وأبو بكر لا يدري – يحاول ســبقه لكنه يجد نفســه وراءه في نهاية المضــمار ! وعمر هو القائل: (ما اســتبقنا إلى خير إلا سبقني إليه أبو بكر) [٣١].

ولا شك أن رجلاً يسبق دون أن يدري أنه في سباق أو أن أحداً يسابقه متفرد في البطولة والسبق!

أرأيت صــبيًّا يركض جهده يســابق عملاقاً يهرول لا يشــعر به ثم يعجز عن التفوق عليه ! فكيف لو علم العملاق واستنفد جهده ؟!

هذا حال عمر خير الأمة من بعده معه ! فكيف حال من دونه ؟!!

نائب النبي ^ دائماً :

ولذلك كان ﷺ ينوب عن النبي ^ في كل موقف مهم بلا منازع.

وأعظم موقفين مهمين تقدم فيهما الصــديق عند غياب النبي ^ في حياته هما الحج والصــلاة ثم ناب عنه في أداء الزكاة بعد الوفاة .

معالم تجلي آثار المعية :

المعلم الأول: نيابته في الحج عن النبي ^ :

ففي الســـنة التاســـعة لم يحج النبي ^ فأناب عنه أبا بكر يحج بالناس. ولم تكن في عهد النبي ^ إلا حجتان تأمر على إحداهما أبو بكر، وعلى الأخرى رســـول الله ^ . وإنما ذهب علي بســـورة براءة بعد نزولها خلف أبي بكر تابعاً ومأموراً يحج بحجه ويصــلي بصــلاته. وليس له إلا قراءة المنشــور الإلهي، يســـاعده في ذلك أبو هريرة ورهط من الصـــحابة [٣٢]. وكان فيه حل بعض العقود وإتمام بعضــــها. والعرب من عادتهم أن لا يحل العقود ولا يعقدها إلا الأمير، أو واحد من أهل بيته. وعلى كل حال فقد كان أبو بكر هو الأمير.

المعلم الثاني: صلاته بالناس في مرض النبي ^

ولما مرض النبي ^ أناب عنه أبا بكر يصــلي بالناس والصــحابة جميعاً متوافرون وفيهم علي وعمر وعثمان . ولما تقدم عمرﷺ في أحد الأوقات -وكان الصديق غائبًا- وسمع النبي ^ صوته يصلي بالناس صرخ غاضباً يسمع الناس : «**فأين أبو بكر ؟! يأبى الله ذلك والمسلمون. يأبى الله ذلك والمسلمون**» [٣٣].

***

(٣١)رواه أحمد.
(٣٢)السيرة النبوية لأبي شهبة ٥٣٧/٢. نقلاً عن كتاب (أبو بكر الصديق) للدكتور علي محمد الصلابي ص٩٣.
(٣٣)رواه أحمد وأبو داود.

المعلم الثالث: إلزامه الناس بأداء الزكاة :

وهذه سيأتي الكلام عنها.

المعلم الرابع: البيعة المتفردة وعدم حاجتها إلى نص أو تعيين :

ولما توفي النبي ^ كانت بيعة أبي بكر بالخلافة وتقدمه فيها كتقدمه في الحج والصــلاة، وكل شــيء في حياته .

إن بيعة الصديق أوضح من أن تحتاج إلى نص أو وصية أو كتاب. هذه كلها لا يحتاجها أبو بكر فهو أكبر من أن يكون في حاجة إلــى مثل ذلك ! وإن كان ^ أراد أن يعهد إليه ويكتب فــي ذلك كتاباً إلا أنه تراجع عن ذلك حين رأى أنه لا حاجة إليه. وعبر عن ذلك بقوله: «**يأبى الله والمؤمنون**»[٣٤]أي إلا أبا بكر. وكان قبلها قد حصل لغط ومراجعات في شأن الكتاب فقال النبي ^ : «**قوموا عني**» وترك الأمر لعدم أهميته. ولو كان ضرورياً وتتوقف عليه مصلحة للأمة لا يضمن النبي ^ حصولها بدونه لما تركه فإنه ^ معصوم عن ذلك.

إن المؤمنين يعلمون أن أبا بكر هو الأولى بمنصب الخلافة ويأبون أن يتولى عليهم – في وجوده – غيره ولا يحتاج علم ذلك إلى كتاب أو أدلة ترجيح لأن تقدم الإمام الثاني في غياب الإمام الأول أمر مفروغ منه بلا كتاب ولا حساب.

لذلك قال عمر ﷺ وهو يحكي اجتماعهم للبيعة في السقيفة المباركة وقد قال أبو بكر: (وإني أرضى لكم أحد هذين الرجلين - أي عمر وأبا عبيدة - : (فلم أكره مما قال إلا هذه الكلمة ، فلأن أقدم فيضــرب عنقي في غير معصية الله أحب إليَّ من أن أتقدم على قوم فيهم أبو بكر) [٣٥].

ويقول: (ليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر! من بايع رجلا عن غير مشــورة من المســلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا) [٣٦]أي أن بيعة أبي بكر متفردة لا يقاس عليها وذلك لتفرد صاحبها فلا يقاس عليه لانعدام النظير، والقياس مع الفارق لا يصح.

وأما قول عمر: (إن بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شــرها) فقد جاءت في معرض الرد على من قال ذلك؛ فقد قال عمر: (بلغني أن قائلاً منكم يقول: والله لو قد مات عمر بايعت فلاناً. فلا يغترن امرؤ أن يقول: إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت. ألا وإنها قد كانت كذلك ولكن الله وقى شــرها، وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر) [٣٧]. ومعنى (فلتة) أنها تمت من دون تحضــير في ظرف طارئ غير محسوب ، رسم صيغتها هذا الظرف الطارئ العاجل بلا تخطيط مسبق يقتضي اجتماع أهل الحل والعقد جميعهم، وإلا حسم الأمر وسارت الريح بما لا تشتهي السفن.

ولا يعقل أن عمر أراد من ذلك الذم . فالتعلق بهذه الكلمة – دون تفسيرها بما يتلاءم وسياق الحال والمقال– تعلق الغريق بالقشة ، وتمسك المفلس بِكِسَرِ النقود ! .

التجلي الثالث لخصائص الصديق في آية الغار: تفرده بوصف (ثاني اثنين) وهو من تجليات المعية له وللنبي ^ خاصة أيضاً.

---

(٣٤)متفق عليه.
(٣٥)البخاري.
(٣٦)أيضاً. وتغرة : كراهة وحذراً.
(٣٧)أيضاً.

إن قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ وإن جاء في سياق الآية مقصوداً به النبي ^ ولكن مقتضى اللغة يجعله منطبقًا على أبي بكر أيضاً لأن العرب إذا قالوا: ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة أو سابع سبعة لا يقصدون واحداً بعينه، وإنما القصد واحد من اثنين وواحد من ثلاثة ..إلخ أي أن كل واحد منهم ثاني اثنين وثالث ثلاثة ..إلخ كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾[المجادلة:٧]. فالنبي ^ في الغار كان ثاني اثنين، وأبو بكر ثاني اثنين كذلك. ولا شك أن ترتيب النبي ^ من حيث المنزلة يأتي أولاً فأبو بكر ثاني اثنين لفظاً ومعنى.

***

تجليات (ثاني اثنين) :

وقد تجلى كون الصديق ثاني اثنين بعد رسول الله ^ في مواطن كثيرة منها :

١ – ثاني اثنين في معية الله تعالى.

٢ – ثاني اثنين في الإيمان: إذ هو أول من آمن (من الرجال).

٣ – ثاني اثنين في الدعوة إلى الله: إذ هو أول من دعا إلى الله بعد النبي ^ فاهتدى بدعوته خيرة رجالات الإسلام وأعمدته التي قام عليها منهم: عثمان بن عفان: ذو النورين الذي أقام الإسلام بأمواله وجهاده. وعبد الرحمن بن عوف: ظهير عثمان في الإنفاق والجهاد. وسعد بن أبي وقاص الذي كان يلقب بالأسد عاديًا خال رسول الله ^ وأول من رمى بسهم وأول من أراق دماً من مشرك في سبيل الله، بطل القادسية وفاتح العراق ومحرره من الاستعمار الفارسي الذي دام ألفا ومائة وخمسة وسبعين عاماً، مبيد الأكاسرة وهازمهم. وطلحة بن عبيد الله: الذي كان يلقب بطلحة الخير وطلحة الجود لكرمه وكان من الشجعان المعدودين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. والزبير بن العوام: حواري رسول الله ^ وابن عمته، كان يعد بألف فارس لشجاعته وبلائه في الحروب ! وهؤلاء مع علي هم أهل الحل والعقد في الأمة وأعضاء مجلس الشورى الذي عينه عمر ﷺ لاختيار الخليفة من بعده مما يدل على حسن اختيار الصديق وبعد نظره في معرفة الرجال.

كما أسلم على يديه كثير من مشاهير الإسلام وصفوتهم كأبي سلمة وخالد بن سعيد وعثمان بن مظعون.

وهو أول من خطب في المشركين يدعو إلى الله تعالى بعد خطبة النبي ^ على الصفا إذ دخل هو ورسول الله الكعبة فقام أبو بكر فيها خطيبًا[٣٨].

٤ – وثاني اثنين في الغار وهو أحرج موقف تعرض له رسول الله ^ وأخطره.

يقول فيه حسان بن ثابت ﷺ :

(٣٨)من الملاحظ في كتب التاريخ والسيرة أن علياً لم يسلم على يده أحد في زمن ضعف الإسلام لا سيما في مكة. وقد يعتذر له بأنه كان صغيراً. وقد فكرت في هذا الموضوع كثيراً أقلبه وأناقشه وأحلله فوجدت أن علياًﷺ شخص تغلب عليه الطبيعة العسكرية القتالية أكثر من الطبيعة السياسية الدعوية. ولعل هذا هو السر الذي جعل النبي^ يلفت نظره إلى أهمية الدعوة إلى الإسلام قبل القتال ويرغبه فيها ويحثه عليها يوم أعطاه الراية في خيبر وقال له: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**» رواه مسلم.
فالنبي ^ لاحظ عليه غلبة العنصر القتالي العسكري على العنصر السياسي الدعوي مما دعاه للتأكيد على الجانب الآخر من أجل إحداث الموازنة في شخصيته وتصرفاته المنعكسة عنها.
وكان للنبي ^ جهاز إعلامي من الخطباء والشعراء ينافحون بألسنتهم عن الدين، وإذا أقبلت الوفود قاموا ليباروا خطباءهم وشعراءهم، ولم يكن سيدنا علي واحداً منهم!

وثـاني اثنين في الغار المنيف وقد   طـاف الـعـدو بــه إذ صـــعــــّـــــد الـجـبـلا

وكان حِب رسول الله قد علموا   مــن الــبــريـــة لـــم يــعـدل بـــه رجــلا

فروي عن النبي ^ أنه ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : صدقت يا حسان هو كما قلت.

٥ – وثاني اثنين في صحبة النبي ^ في الهجرة والتعرض لمخاطرها.

٦ – وثاني اثنين في عريش بدر.

٧ – وثاني اثنين في المشورة والرأي والمداولة في أمور الأمة.

٨ – وثاني اثنين في صحبة النبي ^ في ذهابه وإيابه .

٩ – وثاني اثنين في الصــلاة: حيث كان هو المقدم إذا غاب رســول الله ^ . ومن ذلك ما كان في مرض وفاته إذ قدمه رسول الله ^ يصلي بالناس بضعة أيام لم يرض غيره إماماً حتى ولو كان عمر!

وكان آخر ما ودع به ^ أُمته أن نظر إلى صـفوفهم في الصــلاة وهم يؤدونها خلف إمامهم أبي بكر فجر اليوم الذي قبض فيه -بأبي هو وأمي- ومن فرحه ابتسم ابتسـامة عريضـة رضـاء بما يرى، حتى كاد أن يفتتن المسلمون عن صلاتهم من شدة فرحهم ظنًّا منهم أن رسول الله ^ قد تماثل للشفاء !

لقد سرت إمامة أبي بكر الصديق رسول الله ^ وفرح له حتى ابتسم وأشرق وجهه بالبشر. فكيف تغيظ مسلماً يؤمن بالله واليوم الآخر ويضيق لها صدره ويتمعر وجهه !! [٣٩]

١٠ – وثاني اثنين في الزكاة: يوم أن امتنعت عن أدائها قبائل الجزيرة بعد وفاة النبي ^ فحلف أبو بكر : (لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة) وبر بقسمه فكان الرجل الذي يقول ويفعل. وكان أحق الناس بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج:٤١].

وكان مسيلمة الكذاب قد اختصر الصلوات الخمس إلى ثلاث مهرًا لسجاح فأعادها أبو بكر الصديق إلى ما كانت عليه. وتأمل التقابل بين (الكذاب) و(الصديق) وكيف سلط الله صديق الأمة على كذابها!

وارتدت بعض القبائل عن إقامة الصــلاة فأرجعهم إلى إقامتها. ونشــر الصــلاة والزكاة في ربوع الأرض التي كانت تحت سيطرة فارس والروم.

***

١١ – وثاني اثنين في الحج: إذ أمّره النبي ^على الحجيج في السنة التاسعة وهي الحجة الوحيدة قبل حجة الوداع،كما مر بنا سابقًا. وهكذا كان أبو بكر ثاني اثنين في أعظم أركان الإيمان والإسلام .

١٢ – وثاني اثنين في القرآن: وهذه من أعظم خصائص الصديق ومناقبه التي أفرده الله بها ! يفوز بشرف قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٧] فكان الذي قرأ القرآن وبلغه وكتبه رسول الله ^ ، وكان الذي جمعه في مصــحف واحد مرتباً بين دفتين أبا بكر الصــديق ﷺ ، إذ كان الجمع متعذراً في عهد أولهما ^ لعدم اكتمال القرآن ونزوله مفرقًا لا مرتبًا، فلما اكتمل آخر حياته قام بهذا العمل خليفته من بعده، ولا شــك أن الله تعالى لا يوفق لكرامة هذا الإنجاز العظيم إلا المصــطفين الأخيار والمقربين من الأبرار.

---

(٣٩)روى مسـلم عن أنس بن مالك أن أبا بكر كان يصـلي لهم في وجع رســول الله ^ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة كشف رسول الله ^ ستر......

١٣ – وثاني اثنين في قيادة الأمة: فكان (خليفة رسـول الله ^) وتفرد بهذا اللقب فلم يسـم به أحد من الخلفاء وهو من موافقات القدر!

وكان الصديق أحقهم به لكمال متابعته لنبيه وسيره الكامل على نهجه.

وسمي غيره بـ(أمير المؤمنين) وهو لقب مشترك وليس مختصاً بأحد كلقب الصديق.

١٤ – وثاني اثنين في دعوة العرب وجهادهم وإدخالهم أو إرجاعهم إلى الإسلام الكامل الصحيح إذ جاهدهم النبي ^ كافرين مشركين وجاهدهم الصديق ﵁ مرتدين أو زائغين .

١٥ – وثاني اثنين في جهاد العالمين: فأول من خرجت جيوشـه إلى خارج الجزيرة العربية رسـول الله ^ في مؤتة وتبوك ، وعقد الراية آخر حياته لأسـامة بن زيد ﵁ فأنفذه الصـديق ثم توالت من بعد جيوشه تضرب فارس والروم .

١٦ – وثاني اثنين في الصدق والتصديق وهي صفة اشتهر بها في الجاهلية فكان يسمى - كرسول الله ^ – بــــ(الصـادق) ووصـفه ابن الدغنة – وهو أحد شيوخ قبائل العـــرب – لما رآه عازمًا على الخروج إلى الحبشة فقال : (ما مثلك يا أبا بكر يخرج. إنك لتصدق الحديث وتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر).

فوصفه بالصفات نفسها التي وصفت بها خديجة رضي الله عنها رسول الله ^ أول عهده بالوحي وأولها الصدق : (إنك لتصدق الحديث ...)! ثم نزلت الآيات في ذلك كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٣٣] كما مر بنا.

١٧ – وثاني اثنين في المنزلة بعد رسول الله ^ : إذ تفرد بلقب (الصديق) ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النسـاء:٦٩] . فكان محمد هو النبي، وأبو بكر هو الصـديق. ثم يأتي من بعدهم الصـحابة ما بين شهيد وصالح .

ولهذا لما كان رسول الله ^ مع ثلة من أصحابه على الجبل ورجف بهم قال له : (اثبت أحد فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد) وكان معه أبو بكر الصديق – ولم يمت شهيداً– وعمر وعثمان وعلي وطلحة وآخرون كلهم ماتوا شهداء !

فأبو بكر أفضـل صـديق لأفضـل نبي في خير أمة فهو خيرة البشـر بعد الأنبياء عليهم السـلام فمن أولى منه بإمامة الأمة وقيادتها!

١٨ – وثاني اثنين في التقوى ففيه وفي رسـول الله ﷺ نزل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٣٣]، وهل هناك أتقى ممن جمعه الله تعالى مع نبيه وجعله شـريكًا له في تقواه !

وأدل على ذلك قوله تعالى عنه : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى * ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل:١٧،١٨]، فأبو بكر هو الأتقى من بين الأمة وهو الأكرم كما قال تعالى:﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾[الحجرات : ١٣]. وسيأتي لاحقاً – إن شاء الله – مزيد تفصيل في ذلك.

١٩ – وثاني اثنين في الإحسان وهو أعلى درجات الإيمان إذ قال تعالى فيه: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر:٣٣،٣٤].

٢٠-وثاني اثنين في الجزاء والرضا :

قال الله لنبيه ^ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥]. وقال عن (صاحبه): ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ في آخر قوله: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل:١٧-٢١]. ولم يعد الله تعالى أحدا بعينه بذلك سوى نبيه و(صاحبه)، والتعبير عن الوعد واحد . (لسوف ... ترضى) و(لسوف يرضى).

ولو تدبرنا الآية في الفقرة السابقة (١٩) لوجدنا المشار إليه مشاركاً لرسول الله ^ في الجزاء المذكور بقوله: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر:٣٥،٣٤].

٢١– وثاني اثنين في التنويه بالذكر والفضل تشخيصاً في القرآن ،إذ أن كل ما ورد في القرآن الكريم من فضائل في شأن الصحابة ﷺ جاء في صيغة العموم وليس في صيغة التخصيص التي يفهم منها تشخيص المراد بالذكر دون الحاجة إلى معرفة أسباب النزول. إلا رسول الله ^ -فهو الأصل والقرآن كله في فضائله- وصاحبه فإن آية الغار قد تواطأت القلوب والعقول على أنها في الصديق دونما حاجة لأسباب النزول.

أما (زيد) الذي جاء ذكره في سورة (الأحزاب) فقد ورد عرضاً دون إشارة إلى مدح أو ذم في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب:٣٧].

وأما الثلاثة الذين خلفوا وذكروا في سورة (التوبة) فهم قد ارتكبوا ذنباً تابوا منه فتاب الله عليهم. ولا يمكن معرفتهم دون الرجوع إلى روايات أسباب النزول.

٢٢ – وثاني اثنين في (الحديبية) إذ هو الوحيد من الصحابة ﷺ الذي تابع المتابعة التامة وكان موافقاً (لصاحبه) في كل شيء دون تلجلج أو تردد ولا اعتراض، بل كان منشرح الصدر إيماناً ويقيناً، والجمع المؤمن كله مغموم مكروب وفيهم عمر وعلي الذي رفض أن يمحو من كتاب الصلح كلمة (رسول الله) رغم أن الذي أمره بمحوها الرسول نفسه فاضطر إلى محوها بيده الشريفة بعد أن دله عليها!

وعمر يقول: يا نبي الله ألست نبي الله حقا ؟ فيجيبه ^ : (بلى يا عمر) قال : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ قال: (يا عمر إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري) ويذهب إلى أبي بكر – والموقف عصيب - ليلقي عليه الأسئلة نفسها.. ويتلقى الأجوبة نفسها التي سمعها من رسول الله ^ ! يقول عمر: فأخذ أبو بكر بيدي وجذبها في قوة وقال لي: (أيها الرجل إنه رسول الله ولن يعصيه وإن الله ناصره فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق) [٤٠] فأنزل الله السكينة على قلبي وعلمت أنه الحق.

٢٣ – وثاني اثنين في المطاعن؛ فإن أعظم مطعن وُجه إلى رسول الله ^ كان في عرضه وزوجته أم المؤمنين عائشة. وعائشة هي ابنة أبي بكر؛ فكان أبو بكر ثاني اثنين في أعظم المطاعن !

---

(٤٠)البخاري.

٢٤ – وثاني اثنين في المخاطر التي تعرض لها بيته يوم الهجرة إذ كان الكفار يترددون بين بيت النبي ^ وبيت أبي بكر ﷺ حتى أن أبا جهل ضرب ابنته أسماء رضي الله عنها فأطار قرطها من أذنها وأدمى وجهها! وكان يمكن لبيته أن يتعرض للمحو والاجتثاث!

٢٥ – وثاني اثنين في مماته كما كان في حياته ! فكان قبره بجوار قبر (صـــاحبه) وتفرد أبو بكر بـ(الصحبة) وفاز بها حيًّا وميتًا!!

أما قبر عمر الصاحب الثاني فكان إلى جوار قبر أبي بكر .

التجلي الرابع لخصائص الصديق في آية الغار: تفرده بمواساة النبي ^ :

وذلك بقوله ^ الثابت قطعا في القرآن الكريم: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾. وهذه من خصـــائص الصديق ﷺ حتى كأن الله تعالى هو المواسي.

وهي من جنس مواســاة الله لرســوله في قوله:﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يس:٧٦]، وقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]. ومواساة المؤمنين بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]. لكن مواســـاة المؤمنين عامة، بينما مواســـاة الله لصاحب نبيه خاصة.

ومن جنس مواساة الله تعالى لأم موسى وتطمينها بقوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص:٧]. ومواساة عيسى عليه السلام لأمه: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[مريم:٢٤]. فكيف بمن كان العلي الأعلى معه؟!

ومواساة الملائكة لنبي الله لوط عليه السلام : ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [العنكبوت:٣٣]، وتطمينهم للمؤمنين عند الموت كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

سورة (الليل) وآية (الأتقى) وهذه من أعظم فضائله وخصائصه!

وكيف لا ؟! والله تعالى نفسه يصفه فيها بأعظم صفة إيمانية، ألا وهي.. (الأتقى) !

والأتقى هو الأفضل والأكرم والأعلى منزلة عند الله تعالى. قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات:١٣]. فالصديق أفضل الأمة بعد النبي ^ وأكرمها وأعلاها منزلة عند الله.

وسورة (الليل) مكية من أول ما نزل من القرآن يأتي ترتيبها في المصحف قبل سورة (الضحى). وجميع ما فيها من فضائل نزلت بحق الصديق ﷺ . كما أن سورة (الضحى) نزلت بشأن النبي ^ . فسورة (الليل) لأبي بكر ﷺ ، وسورة (الضحى) للنبي محمد ^ !

جاء في أسباب النزول للسيوطي: أخرج الحاكم عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قال أبو قحافة لأبي بكر: أراك تعتق رقاباً ضعافًا فلو أنك أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك يا بني، فقال: يا أبت إنما أريد ما عند الله، فنزلت هذه الآيات فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ إلى آخر السورة. وأخرج ابن

أبي حاتم عن عروة: أن أبا بكر أعتق سـبعة كلهم يعذب في الله ، وفيه نزلت ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة. وأخرج البزار عن ابن الزبير قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ إلى آخرها في أبي بكر الصديق.

الآية لا تنطبق إلا على الصديق ﷺ .

قد يحاول البعض – كما مر بنا ذكره في المقدمة - أن يماري في اختصـاص الصـديق بفضـل هذه الآية الكريمة، ولكن الاختبار ليس في صـالحه أبداً، إنما يظهر بجلاء أن فضائل هذه السورة لا تنطبق تمام الانطباق إلا على الصـديق ﷺ ! فضـلاً عن هذه الآية. فلو أخذنا حال الخلفاء الراشـدين الثلاثة وأجرينا الاختبار لتبين لنا ما يلي:

إن عمر بن الخطاب ﷺ تأخر إسلامه إلى السنة الثالثة أو ما بعدها، والسورة من أول ما نزل ولعلها سبقت في نزولها إسلامه. ولم يكن إنفاقه كأبي بكر وهو القائل: (ما استبقنا إلى خير إلا سبقني إليه أبو بكر) [٤١].

وعثمان بن عفان ﷺ كانت نِعم رسـول الله ^ تطوقه؛ إذ زوجه بابنتيه رقية وأم كلثوم رضـي الله عنهما. وهذه من أعظم النعم الدنيوية والأخروية. والسورة تقول عن هذا المنفق الذي يؤتي ماله يتزكى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي ليس لأحد عليه سابق نعمة يكافئها بهذا الإنفاق ردًّا للجميل. وإنفاقه ﷺ اشتهر في المدينة كشرائه بئر رومة وتجهيزه جيش العسرة، والرسول ^ يقول : «**ما نفعني مال كما نفعني مال أبي بكر**»[٤٢].

أما علي بن أبي طالب ﷺ فكان حين نزول الآية صـبيًّا في كفالة النبي ^ لا يملك مالاً ينفقه على نفسـه ولا على غيره. بل كان النبي ^ هو الذي ينفق عليه ويكفله ويحوطه ويؤويه، ثم زوجه ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها.

والآيات تصـف المذكور بأنه ﴿يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ ولم يكن عند علي من مال يزكيه عند نزولها. وأنه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ وكانت نعم رسـول الله ^ المذكورة آنفًا تطوقه من كل جانب. فليس هو المقصود إذن.

أما أبو بكر ﷺ فلم يكن لرسـول الله ^ ولا لغيره عنده من سـابق نعمة يكافئها أبو بكر بإنفاقه على الدعوة أو في حوائج رسول الله ^ ، وقد زوج رسولَ الله ^ ابنته عائشـة رضـي الله عنها أحب نسائه إليه. ولذا روي عن النبي ^ أنه قال: «**ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافيه الله بها يوم القيامة**» [٤٣].

إلا نعمةَ النبوة والهداية إلى الحق. وهي غير مقصـودة في الآية لأنها لا تجزى. والآية في ذكر النعمة التي تجزى. وهي عامة في أعناق الجميع وليست خاصة بأبي بكر وحده.

وفي السـورة وعد لأبي بكر بقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ وهو يشـبه تماماً ما وعد الله به نبيه ^ في سورة الضحى بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ وهو خاص بأبي بكر. كذلك فيها قوله عنه : ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وهو يشبه ما قاله عن نبيه ^ في سورة الأعلى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ، وذلك خاص بأبي بكر أيضاً.

---

(٤١)رواه أحمد.
(٤٢)رواه الترمذي وقال: حسن غريب. ورواه أحمد وابن ماجة أيضاً.
(٤٣)رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

فأبو بكر هو (الأتقى)، وغيره – كأمية بن خلف الذي نزلت فيه الصفات المقابلة – هو (الأشقى)، والفرقان بينهما واضح جلي وضوح النهار مع الليل. ففضل أبي بكر وتميزه كتميز النهار عن الليل: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ * إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ * فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾.

وبمال أبي بكر منَّ الله على نبيه ^ في سورة الضحى فقال: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾. وبفضله - وهو من معاني الآية - أمره أن يحدث: ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ .والله تعالى يقول : ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ ﴾ [البقرة:٢٣٧]، وأبو بكر هو صاحب الفضل الذي نوه الله بذكره بقوله: ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[النور:٢٢]. وبذلك نوه النبي ^ وحدث كما أمره الله تعالى.

***

بين النهار والليل والمؤمن والمنافق :

جعل الله تعالى إنفاق المال هي الصفة الفارقة بين المؤمنين والمنافقين. يقول تعالى: ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة:٦٧]. وقال في صفة المنافقين أيضاً: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ * فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ ﴾ [التوبة:٥٤،٥٥].

وأبو بكر ﵁ بلغ قمة السخاء في الإنفاق في سبيل الله حتى صار ذلك علامة عليه وهذه العلاقة ثابتة له في القرآن كالنقطة الدالة ترشد إليه فهو: ﴿مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾. وهو ﴿ ٱلۡأَتۡقَى * ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾.

سورة (الشرح) :

والمقصود منها قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ * وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ * ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴾. وهي مكملة لسورة (الضحى)، وتأتي بعدها حتى كأنهما سورة واحدة.

والوزر هو الحمل الثقيل الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴾[المزمل:٥] وهو الأمر بالدعوة والتصدي للناس بالأمر والنهي .

ولم يخف هذا الحمل عنه ^ بأحد كأبي بكر ﵁ إذ كان ساعده الأيمن وظهيره الأقوى في كل شيء. وسخر في خدمته نفسه وماله.

وكان أتباعه يعذبون فكان أبو بكر يبذل ماله في خلاصهم وشرائهم وذلك مما يفرج الضيق ويزيح الهم عن صدر رسول الله ^.

وكان مع النبي ^ يتدارس أمور الدعوة ويضع الخطط ويقول ويشير ويغدو ويروح ويجلس ويسمر ويسر إليه بالأمور الخطيرة [٤٤].

---

(٤٤)من ذلك قوله بعد القضاء على المرتدين: (واعلموا أن رسول الله ^ كان عول أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه واختار ما لديه. ألا وإني عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم ومالهم فرسول الله ^ أنبأني بذلك قبل موته).

وهذا كله مما يخفف الحمل، ويزيح عن الصدر العبء الثقيل فينفسح وينشرح.

ولا شك أن الهم والعبء لا يمكن أن يخف بصبي أو غلام كعلي لأسباب كثيرة منها:

١- عدم التقارب النفسي بين صبي وشيخ جاوز الأربعين.

٢- عدم قدرة الصبي الجسدية والفكرية على تحمل الأعباء.

٣- عدم امتلاك المنزلة الاجتماعية المؤثرة.

٤- عدم القدرة المادية.

ولذلك لم يبرز دور سـيدنا علي إلا في المدينة بعد بدر. وكان المشـركون يطلبون رأس عمه حمزة للثأر من قتلى بدر لأنه هو الشـخصـية البارزة المؤثرة من أهل بيت رسـول الله ﷺ على عادة أهل الجاهلية في الثأر والانتقام لا يكون إلا ممن يرونه مقدماً عند الخصوم وبارزاً في المجتمع.

أما الزوجة فيمكن أن تخفف عن الزوج حمل البيت، أما مكابدة أمر الناس في الخارج فلا. وهكذا انطبقت سورة الشرح على أبي بكر فشرح الله به صدر نبيه ﷺ ووضع وزره ويسر عليه كل أمر عسير.

آية (التفضيل) في سورة (الحديد) :

وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد:١٠].

في هذه الآية العظيمة يجعل الله للتفضيل أسساً ثلاثة هي:

١ – الإنفاق .

٢ – القتال .

٣ – السبق في الإنفاق والقتال .

ولو عملنا مقارنة منصـفة بين الإمامين الكريمين أبي بكر وعلي رضـي الله عنهما لكانت النتيجة كالآتي:

أبو بكر رضي الله عنه أعظم من أنفق من قبل الفتح وما انتفع الإسلام بمال أحد كما انتفع بمال أبي بكر.

أما علي رضي الله عنه فلم يكن عنده من مال ينفقه لا من قبل الفتح ولا من بعده وذلك لفقره. وكان في مكة في كفالة النبي ﷺ . وظل الفقر ملازماً له طيلة حياة النبي ﷺ فلا يعرف عنه أنه جهز جيشاً أو حل معضلة مادية.

وقدم الله تعالى الإنفاق على القتال لأن الدعوات إنما تقوم أولاً على مال المنفقين، لا على قوة المقاتلين.

فهذا العنصر الأول والأعظم من عناصر التفضيل: كله لأبي بكر دون علي عملاً وسبقاً.

وأما القتال فلأبي بكر منه النصـيب الأعلى؛ إذ كان قتاله قتال القادة المخططين الذي يرقبون ميدان المعركة يديرونه ويوجهونه ولا ينزلون لمباشرة القتال بأنفسهم إلا عند الحاجة القصوى.

فكان أبو بكر مع رســـول الله ^ في مركز القيادة يخطط ويرقب مجريات المعركة ويوجهها. وهذا أعظم في الميزان من قتال الجندي الباسل في الميدان مهما بلغت درجة بسالته وفتكه بالأقران. وهو ما كان عليه سيدنا علي ﷺ . ثم إن التخطيط والقيادة تسبق مباشرة القتال.

ولقد كان أبو بكر ﷺ يستأذن النبي ^ في النزول للمبارزة، كما حصل عندما برز ابنه عبد الرحمن في بدر - وكان يومها مشـــركاً - فأراد أبو بكر أن يبرز له فمنعه النبي ^ قائلاً: «**متعنا بنفســـك يا أبا بكر**». فكان يمنعه ويأذن لغيره كعلي لأن أبا بكر ليس من السهل أن يفرط فيه أداء لمهمة يمكن أن يقوم بها عنه آخرون، كان ينتدبهم النبي ^ لها كما انتدب عليًّا ﷺ لقيادة الكتيبة الاقتحامية في خيبر فكان الفتح على يديه.

ودافع أبو بكر ﷺ عن النبي ^ بنفسه وضرب عنه بيده فضرب حتى أدمي وأغمي عليه وهو يقول: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم) (٤٥) يقصد النبي ^ . وذلك في مكة وهو من جنس القتال الممدوح فكان ﷺ سابقاً في هذا أيضاً.

ولما كان قتال النبي ^ وأبي بكر ﷺ هو قتال القادة ، فلا يقاس بغيره على أســـاس عدد من يقتل أو الجهد البدني الشخصي المبذول في ساحة القتال. إنما هذا هو شأن الجندي وعمله. ولذلك لا يعرف أن النبي ^ قتل أحداً إلا القليل النادر. ولكنه أفضل وأعظم من قاتل وجاهد في سبيل الله! وكذلك كان أبو بكر.

آية (أولو الفضل) في سورة (النور) :

وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢].

وقد سبق الكلام عنها (في موضوع آثار الصحبة وتجلياتها)، ووجه تفرد أبي بكر في الفضل الوارد فيها .

وذلك من خصائصه العظيمة.

آية (التصديق) في سورة (الزمر) :

وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ * أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[الزمر:٣٤-٣٧].

أما الذي جاء بالصدق فمحمد ^ ، وأعظم من صدّق به الصديق ﷺ فهو أول المقصودين بالآية وما بعدها.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾إشـــارة الى آية الغار: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾فكما نصره بواحد صدقه بواحد ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾.

(٤٥)البخاري.

ولا شك في أن المصدقين كثيرون، ولكن أعلاهم تصديقاً هو الصدِّيق لشدة صدقه. وعلي واحد منهم إلا أن الآية – على قواعد الإمامية – لا تشــمله، فضــلاً عن أن تخصــه! جاء في [المنتقى من منهاج الاعتدال للذهبي/٤٧٠] أن أبا بكر بن عبد العزيز غلام الخلال سئل عن هذه الآية؟ فقال: نزلت في أبي بكر. فقال الســـائل: بل في علي. فقال أبو بكر: اقرأ ما بعدها. فقرأ إلى قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ فقال: علي عندكم معصوم لا سيئة له فما الذي يكفر عنه؟! فبهت السائل.

آية (الصادقون) في سورة (الحشر) :

وهي قوله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر:٨].

وأبو بكر الصديق أصدق الصادقين بعد رسول الله ^ . فلقــد تحققت فيه أركان الصدق المذكورة في الآية في أجلى صورها:

- هاجر مع رسول الله.

- وأُخرج من داره وماله.

- وأنفق ما يملك ابتغاء فضل الله ورضوانه. والغني المنفق خير من الفقير الذي لا يستطيع الإنفاق من هذه الناحية.

- وهو أكثرهم نصرة لله ورسوله حتى كان فيها مضرب المثل! فلقد أنزل الله فيه وفي المؤمنين هذه الآيات التي يستنفر بها همم المؤمنين جميعاً ويضرب لهم المثل بأبي بكر الصديق وكيف نصر الله ورسوله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ *إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ * إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:٣٨-٤٠]. فلم يستثن من هذا العتاب الموجه إلى جميع المؤمنين إلا نبيه ^ و(صاحبه) ﷺ .

فكان أبو بكر ﷺ أفضل الصادقين الذين نصروا الله ورسوله. فهو الأولى بالإمامة. والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] . فأمر جميع المؤمنين أن يكونوا تبعًا للصادقين وهم تبع لأصدقهم وأفضلهم.

وبهذه الآية احتج أبو بكر على الأنصـــار في أن المهاجرين أولى منهم بالإمارة وأن المهاجرين هم الأمراء . والأنصار هم الوزراء فكان أبو بكر إمام الأئمة.

آية (الاستخلاف) في سورة (النور) :

وهي قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

وبر الله عز وجل بوعده فمكن للمؤمنين، وجعل منهم الخلفاء الراشـــدين، وأولهم أبو بكر الصـــديق ﷺ. بل هو (خليفة رسول الله^) بلا منازع. أما غيره فـــ(خليفة المسلمين) أو أمير المؤمنين. وشتان شتان.

وهذا يدل على توفر الشــرط (وهو الإيمان والعمل الصـــالح) فيمن اســتخلفهم ومكن لهم، وإلا لما حصل الوعد بالاستخلاف والتمكين؛ لأنه مشروط به. وأن أبا بكر تحقق فيه من ذلك النصيب الأوفر المناسب للاستخلاف الأعظم.

ومكن الله للمؤمنين وحصــــل لهم من الأمـان والاطمئنـان والقوة والإيمـان في زمن أبي بكر مـا استطاعوا به أن يزعزعوا كيان أكبر دولتين في عالمهم: فارس والروم.

وكان نصـيب أبي بكر من الاسـتخلاف والتمكين والأمن أكبر من علي الذي لم يسـتطع أن يبسـط سلطان خلافته على جميع المسلمين، ولم يبلغ من القوة والتمكين ما يستطيع به قهر خصومه ومخالفيه. بل طمع في المسلمين الروم وفكروا في غزوهم حتى هددهم معاوية بمصـالحة علي والمسير إليهم إن لم يكفوا. فرجعوا عما هموا به وعزموا عليه.

آية (التمكين) في سورة (الحج) :

وهي قولـه تعـالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج:٤١].

وأبو بكر الصديق أولى الأمة بهذه الآية لأسباب عديدة منها:

أنه صـــلى بالناس إمامًا في عهد النبي ^ وبعد وفاته. وكان علي ﷺ وغيره يصـــلي خلفه مأموماً. وصـــلاة الإمام أكمل من صـــلاة المأموم. وإلا لم ينبغ له التقدم عليه إلا لعذر. وتقدم أبي بكر لإمامة المسلمين في الصلاة كان بأمر النبي ^ و(تزكيته) وهو القائل: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله**» [٤٦].

أنه صلى أول الإسلام وهو رجل بالغ . وصلى علي وهو صبي. وصلاة البالغ أكمل وأوجب: فإن صلاة الصبي على سبيل الاستحباب، وصلاة البالغ على سبيل الوجوب. والواجب أحب إلى الله، ولذلك أوجبه على العباد.

أنه لما مكن الله له في الأرض قاتل على الصــلاة وأرجع المرتدين إلى حضـيرة الإســلام فأقاموها. ونشــر الإسـلام خارج الجزيرة العربية فصـار الناس يقيمون الصــلاة في تلك البلدان. فاكتمل في حقه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾. وعلي ﷺ لما مكن الله له حكم أناســاً مســلمين يصلون. ولم يتمكن - لانشغاله بإخماد الفتن – من نشر الإسلام إلى الخارج. بل ابتلي بقتال المصلين!

أما الزكاة فقد أداها أبو بكر عن نفسه. ولم يفعل ذلك علي لفقره.

ولما مكن الله لأبي بكر قاتل الناس على الزكاة حتى صــاروا يؤدونها ســواء منهم من كان مســلمًا فامتنع عن أدائها، أم كان كافراً فأسلم. وعلي لم يفعل ذلك في حال تمكينه، وذلك لانشـغاله بإخماد الفتن – كما قلنا – وقد قتل فيها عشــرات الآلاف من المصـلين والمزكين من الطرفين. ما قلل عددهم. ومن الطبيعي أن تستنزف الحروب الداخلية أموال الأمة ومواردها ما يؤدي إلى افتقار كثير ممن كان يؤدي الزكاة ويجعلهم غير قادرين على أدائها!

---

(٤٦)متفق عليه.

فكان الذي – لما مكن الله له في الأرض - أقام الصلاة وآتى الزكاة على الوجه الأكمل هو الصديق. فهو أولى بالخلافة والتمكين لاستيفائه شروطه كاملة.

آية الأعراب في سورة (الفتح) :

وهي قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح:١٦].

وهذه الآية لم تكن إلا في حق أبي بكر ﷺ :

- فالنبي ^ لم يقاتل بعد نزولها (أي بعد صلح الحديبية) قوماً أولي بأس شديد فأسلموا.

فيهود خيبر لم يسلموا.

ومكة فتحت بلا قتال أو بأس شديد.

وأهل الطائف أسلموا طواعية، ولم يسلموا بقتال.

وتبوك لم يحصـــل فيها قتال، ولم يســـلم أحد. هذا كل ما حصـــل للنبي ^بعد نزول الآية. فليس هو المقصود بها.

- وعلي ﷺ لم يقاتل أحداً في عهده على الدخول في الإسلام. بل قاتل أناساً مسلمين.

قاتل أهل مكة والمدينة في (الجمل). ولم يكن قتالاً على الإســـلام فما كان أحد الفريقين يتهم الآخر بالخروج منه فهو يقاتله ليدخله فيه. ولم يحدث أي تحول في اعتقاد الفريق الذي قاتله.

والخوارج لم يكونوا كفاراً، بل مبتدعين . ولم يقاتلهم علي على بدعتهم للرجوع عنها، وإنما لأنهم حملوا الســـلاح وســـفكوا الدم الحرام وقطعوا الطريق وأخافوا الناس بعد أن قال لهم: (لكم علينا أن لا نمنعكم مساجدنا ولا نمنعكم فيئكم ما دمتم تقاتلون معنا مالم تحدثوا حدثاً).

وقاتلهم فلم يرجع أحد منهم عما هو فيه بل ظلوا خارجين حتى قتلوه. ومات ﷺ وهو يوصـــي بهم – كما ورد في نهج البلاغة - قائلاً: (لا تقتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه) [٤٧]. ولو كانوا كفاراً أو مرتدين لما نهى عن قتالهم وجعلهم متأولين في ارتكابهم الباطل غير قاصدين إليه أصلاً. ورغب بالعفو عن قاتله فقال – على ما ورد هناك : (إن أبق فأنا ولي دمي وإن أفن فالفناء ميعادي، وإن أعف فالعفو لي قربة وهو لكم حســـنة فاعفوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم) [٤٨]. والمرتد – ما لم يتب – يجب قتله، فكيف وهو مصـــر بل مرتكب لجريمة القتل مع (ســـبق العمد والترصد والإصرار)!

وقال: (يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضـــون في دماء المسلمين تقولون: قتل أمير المؤمنين. ألا لا يقتلن بي إلا قاتلي) [٤٩]. فسمى الخوارج مسلمين ونهى عن الخوض في دمائهم.

إنما الذي قاتل من ذكرتهم الآية هو أبو بكر الصـــديق : إذ قاتل المرتدين. وقاتل الفرس والروم. وكانوا جميعاً أولي قوة وأولي بأس شديد حتى استسلموا وأسلموا.

والله تعالى دعا المخلفين من الأعراب إلى القتال معه ووعدهم بالأجر الحســـن على ذلك. وهذا دليل على صحة إمامته. وإلا لما رغّب الرب في القتال تحت رايته.

---

(٤٧)نهج البلاغة ١/ ١٠٨.
(٤٨)النهج ٢١/٣.
(٤٩)النهج ٧٧/٣.

آية (قتال المرتدين) في سورة (المائدة):

وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٥٤].

وهذا ملخص قول الإمام الرازي في الآية أنقله بتصرف:

إن هذه الآية يجب أن يقال: إنها نزلت في حق أبي بكر ﷺ والدليل على ذلك: إن هذه الآية مختصة بمحاربة المرتدين . وأبو بكر هو الذي تولى محاربة المرتدين ولا يمكن أن يكون المراد هو الرسول عليه السلام لأنه لم يتفق له محاربة المرتدين ...

ولا يمكن أن يكون المراد هو علي لأن علياً لم يتفق له قتال أهل الردة. فإن قالوا: بل قتاله مع أهل الردة لأن كل من نازعه في الإمامة كان مرتداً قلنا: هذا باطل من وجهين:

الأول: أن اسم المرتد إنما يتناول من كان تاركاً للشرائع الإسلامية، والقوم الذين نازعوا عليًّا ما كانوا كذلك في الظاهر، وما كان أحد يقول: إنه إنما حاربهم لأجل أنهم خرجوا عن الإسلام، وعلي لم يسمهم البتة بالمرتدين.

الثاني: أنه لو كان كذلك لوجب بحكم ظاهر الآية أن يأتي الله بقوم يقهرونهم ويردونهم إلى الدين الصحيح، ولما لم يوجد ذلك البتة علمنا أن منازعة علي في الإمامة لا تكون ردة. وإذا لم تكن منازعته ردة لم يمكن حمل الآية على علي لأنها نزلت فيمن يحارب المرتدين.

وكلمة (من) في معرض الشرط للعموم فقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ الآية، يدل على أن كل من صار مرتدًّا عن دين الإسلام فإن الله يأتي بقوم يقهرونهم ويبطلون شوكتهم. فلو كان الذين نصبوا أبا بكر كذلك لوجب بحكم الآية أن يأتي الله بقوم يقهرونهم ويبطلون شوكتهم. ولم يكن الأمر كذلك بل كان بالضد: إذ قهر الله خصومهم وقمع بهم المرتدين . وعلي لم يحارب أبا بكر بل حمل السيف تحت لوائه في وجه المرتدين وكان هو على رأس الكتيبة التي تولت حراسة المدينة حينما خرج أبو بكر بنفسه ليقود أول معركة معهم حول المدينة. ولما انتهت المعارك بدحرهم على يد أبي بكر أكرم عليًّا فزوجه بسبية من بني حنيفة ولدت له ابنه محمداً. وهذا دليل آخر على ردتهم لأن عليًّا قبلها من الصديق ونكحها نكاح ملك اليمين. وقاتل عمار بن ياسر المرتدين حتى صلمت أذنه، ويعيره يوماً رجل فيقول : يا ذا الأذن فيجيبه عمار ﷺ بقوله: (خير أذنيَّ سببت).

وفي الآية صفات جعلها الله لمن أرادهم بها:

أولها: أنه ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ فلما ثبت أن المراد بها هو أبو بكر ثبت أن قوله: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ وصف لأبي بكر؛ فدل ذلك على صحة إمامته.

وثانيها: قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾. وهذه صفة أبي بكر الثابتة له واقعاً. ويؤيده الخبر المستفيض أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر**» (٥٠). فكان موصوفاً بالرحمة والشفقة على المؤمنين وبالشدة مع الكافرين. كما أحرق الفجاءة حين ارتد وخدعه فغدر به.

---

(٥٠)رواه أحمد وابن ماجة والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

ألا ترى أنه في أول الأمر حين كان الرسول في مكة وكان في غاية الضعف كيف كان يذب عن الرسول ^ وكيف كان يلازمه ويخدمه وما كان يبالي بأحد من جبابرة الكفار وشياطينهم. وفي آخر الأمر - أعني خلافته - كيف لم يلتفت إلى قول أحد وأصر على أنه لا بد من المحاربة مع مانعي الزكاة حتى لو آل الأمر إلى أن يخرج إلى قتال القوم وحده فكان أشد الصحابة في ذلك وأعزهم على الكافرين فكان قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾لا يليق إلا به !

وثالثها :قوله تعالى : ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ وهذا وإن كان مشتركاً بين أبي بكر وعلي، إلا أن حظ أبي بكر فيه أتم وأكمل. وذلك أن مجاهدة أبي بكر مع الكفار كانت في مكة في أول البعثة. وهناك الإسلام كان في غاية الضعف، والكفر كان في غاية القوة. فكان أبو بكر يجاهد الكفار بمقدار قوته، ويذب عن رسول الله بغاية وسعه. أما علي فإنما شرع في الجهاد يوم بدر وأحد. وفي ذلك الوقت كان الإسلام قويًّا وكانت العساكر مجتمعة. فثبت أن جهاد أبي بكر كان أكمل من جهاد علي من وجهين!

الأول: أنه كان متقدماً عليه في الزمان، فكان أفضل .

والثاني : أن جهاد أبي بكر كان في وقت ضعف الرسول ^ وجهاد علي كان في وقت الشدة.

قلت:

والوجه الثالث: أن أبا بكر تفرد عن علي بالجهاد بالمال وهو أول نصف عناصر التفضيل التي جاءت في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ﴾ [الحديد:١٠].

والوجه الرابع : أن جهاد أبي بكر كان جهاد القائد وجهاد علي جهاد الجندي الباسل.

ورابعها : قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾و هذا أكثر ما يليق بأبي بكر لأنه متأكد بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ ومتى كان الأمر كذلك وجب القطع بصحة إمامة أبي بكر إذ لو كانت باطلة لما كانت هذه الصفات لائقة به أ.هـ بتصرف وجاءت بعدها في السياق مباشرة آية الولاية فهي مكملة لها.

آية (الولاية) :

وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[المائدة:٥٥، ٥٦].

وهي في أصلها عامة. ولكن إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية الأولى بالوصف يكون أبو بكر هو الأولى؛ لأنه هو الذي أقام الصلاة وآتى الزكاة على المستويين الشخصي والجماعي على أكمل وجه [٥١].

والآية التي بعدها تقول: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ وكان خصوم أبي بكر مكبوتين مغلوبين. وقد تحقق له الغلب على خصومه أكثر مما تحقق لعلي: فإن الله تعالى مكن للصديق في الأرض. وبايعته الأمة جميعاً. ونصره على المرتدين نصراً حاسماً. وما مات إلا وجيوشه تصاول جيوش أكبر دولتين في العالم آنذاك وتحرز النصر والغلب المتلاحق عليهم. فأي غلب أعظم من هذا؟!!

---

(٥١)راجع ما جاء في الفقرة (٥) عند الكلام على آية التمكين في سورة الحج .

بينما لم يكن علي سلطانه مبسوطاً. ولم يتغلب إلا على الخوارج.

وكان غلباً جزئيًّا إذ ظلت فلولهم هنا وهناك تعيث فساداً حتى تمكنوا في نهاية المطاف من قتله ﷺ .

أما أهل الشام بقيادة معاوية ﷺ فقد رجحت كفتهم شيئاً فشيئاً لا سيما في أخريات عهد علي ﷺ. ولا شك أن عليًّا من حزب الله. لكن تحقق الآية في أبي بكر أكثر وأوضح.

وأما قصة الخاتم فهي موضوعة لم ترد بسند صحيح قط . ومتنها لا يثبت عند التحقيق. ومما يدل على وضعها واختلاقها ما ثبت من فقر علي ﷺ لا سيما عند نزول الآية فإنه كان فقيراً لا يملك نصاب الزكاة. والآية في الذين يؤتون الزكاة. والزكاة مصطلح قرآني لا يطلق إلا على الفريضة المعروفة. وعلي –عند نزول الآية– لم يكن ممن يؤتون الزكاة. فكيف تصرف الآية إليه، فضلاً عن تخصيصه بها، وقصرها عليه!

ولو افترضنا صحة الحكاية فهي ليست أكثر من سبب للنزول. وقد تقرر في الأصول أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فتكون مما يدل على فضله ﷺ وفضائله كثيرة مشهورة لا ينكرها مسلم.

والراجح مما ذكر من أسباب النزول أنها نزلت في حق عبادة بن الصامت ﷺ [٥٢] لما تبرأ من حلف اليهود وولايتهم إلى ولاية الله ورسوله والمؤمنين ، في مقابل تمسك عبد الله بن أُبي بن سلول بحلفه معهم فنزل فيه قوله تعالى في الآية/٥١ من سورة المائدة وما بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ الآيات.

وفي عبادة نزل قوله تعالى في [الآية:٥٥]﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وما بعدها : الآيتين، ثم عادت الآيات تنهى عن موالاة اليهود والنصارى وغيرهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الآية:٥٧] وما بعدها. ومع أن عبادة سبب النزول [٥٣] إلا أن الآية ليست خاصة به، بل عامة في كل من تبرأ من أعداء الله ووالى الله ورسوله والذين آمنوا. وأبو بكر أفضل من تبرأ من أولئك وتولى هؤلاء، على الوجه الذي فصلناه في أول الكلام عن الآية.

٣ ـ ما خصه به النبي ٨ من الفضل :

لم يرد في فضل أحد من أصحاب النبي ٨ من الأحاديث النبوية الشريفة كما ورد في فضل الصديق ﷺ . وهذه باقة من أزاهيرها الطيبة:

---

(٥٢)روى ابن إسحاق وابن جرير والبيهقي عن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ٨ تشبث بأمرهم عبد الله بن أُبَي بن سلول وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ٨ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وكان أحد بني عوف من الخزرج وله من حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله بن أُبَي فخالفهم إلى رسول الله ٨ وتبرأ من حلف الكفار وولايتهم وقال : يا رسول الله أبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله والمؤمنين. قال عبادة: ففيَّ وفي عبد الله بن أُبَي نزلت الآيات من ﴿ **يا أيها....** فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ أسباب النزول في حاشية روائع البيان لمعاني القرآن/ أيمن عبد العزيز .

(٥٣)على أنه ورد في بعض الروايات أن الآية نزلت في أبي بكر كما في أسباب النزول للثعلبي عن ابن عباس/ نقلاً عن كتاب الحجج الدامغات لنقض كتاب المراجعات ١/١٣٠ لأبي مريم الأعظمي. وفي الحلية ٣ / ١٨٥ عن عبد الملك بن أبي سليمان قال: سألت أبا جعفر الباقر عن الآية فقال: أصحاب محمد ٨ قلت: يقولون: هو علي ؟ فقال : علي منهم . وروى ابن جرير وغيره عن ابن عباس قال : من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا. / الحجج الدامغات ١/١٣١ – ١٣٢ .

روى البخاري وغيره عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ^ صـــعد أحداً فتبعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فضربه النبي ^ برجله وقال: «**اثبت أحد فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان**». والصديق على حد النبي في المرتبة: فهو فوق الشـــهيد ودون النبي. يقول تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾[النساء:٦٩].

وروي أن النبي ^ قال: «**قلت لجبريل ليلة أسري بي: إن قومي لا يصدقونني**» فقال: يصدقك أبو بكر الصديق. فعرف منذ ليلة الإسراء بالصديق. وكان علي ﷺ يحلف بالله أن الله أنزل اسم أبي بكر من السماء (الصــديق). قلت: وإلى ذلك الإشـــارة بقوله تعالى: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾الذي جاء بعد قوله: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾[الزمر:الآيات ٣٤،٣٦] وهو شبيه بقوله: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ ﴾[التوبة:٤٠]. فكما نصره بأبي بكر صدقه – كذلك – بأبي بكر!

روى البخاري ومسلم قوله ^ : «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن. لا يبقين في المسجد باب – وفي رواية: خوخة - إلا سد إلا باب أبي بكر**». وهذا في آخر أيامه ^ . والخلة أعظم درجات الحب. واستثناء باب أبي بكر إشـارة إلى أنه هو الخليفة من بعده.

وهذا يشبه جواب النبي ^ لعمرو بن العاص ﷺ حين سأله: من أحب الناس إليك ؟ قال: «عائشة» قال: فمن الرجال؟ قال: «أبو بكر». متفق عليه.

وروى البخاري عن جبير بن مطعم قال: أتت امرأة النبي ^ فأمرها أن ترجع إليه قالت: أرأيت إن جئتك فلم أجدك؟ كأنها تريد الموت قال: «**إن لم تجديني فأتي أبا بكر**». وفيه إشـــارة واضـــحة إلى أنه الخليفة من بعده.

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ^ في مرضه: «**ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنى متمنٍ ويقول قائل : أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**». وروى البخاري الحديث بلفظ مقارب.

وروي أنه ^ قال: «**ما دعوت أحداً إلى الإســـلام إلا كانت منه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر ما عكم (تلبّث) عنه حين ذكرته له وما تردد فيه** ».

وروى الترمذي وحسَّنه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ^ : «**ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافيه الله بها يوم القيامة وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر. ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ألا وإن صاحبكم خليل الله**». ومصداقه قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى * ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ * إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ * وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾[الليل:١٧-٢١].

وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ^ : «من أصبح منكم اليوم صائماً؟» قال أبو بكر: أنا. قال ^ : «**فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**» قال أبو بكر: أنا. قال ^ : «**فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟**» قال أبو بكر: أنا. قال ^ : «**فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟**» قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ^ : «**ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة**».

وعن حذيفة بن اليمان قال : قال رسـول الله ^ : «**اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر**». رواه أحمد وابن ماجة والترمذي وقال: حديث حسن. وهو في (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/٢٣٣-٢٣٦) للألباني[٥٤].

وروى البخاري وغيره عن سهل بن سعد ﷺ قال: كان قتال بين بني عمرو بن عوف فبلغ النبي ^ فأتاهم بعد الظهر ليصلح بينهم قال: فلما حضرت صلاة العصر أقام بلال ثم أمر أبا بكر فتقدم بهم. وجاء رسول الله ^ يشق الناس حتى قام خلف أبي بكر، وكان أبو بكر إذا دخل في الصلاة لم يلتفت فلما أن سمع التصفيق لا يمسك عنه التفت فرأى النبي ^ خلفه فأومأ إليه النبي ^ بيده (أن امكث مكانك) فقام أبو بكر هنيهة فحمد الله على ذلك ثم مشى القهقرى فتقدم رسول الله ^ فصلى بالناس. فلما قضى صلاته قال: «**يا أبا بكر ما منعك إذ أومأت إليك أن لا تكون مضيت**» ؟ فقال أبو بكر : لم يكن لابن أبي قحافة أن يؤم رسول الله ^ !.

وعن عائشة ﷺ قالت: (لما ثقل رسول الله ^ جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» قالت: فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف (**سريع الحزن والبكاء**) وإنه متى يقم مقامك لا يُسمع الناس فلو أمرت عمر ؟ فقال: (**مروا أبا بكر فليصل بالناس**) قالت: فقلت لحفصة: قولي: إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر ؟ فقالت له. فقال رسول الله ^ : «إن**كن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس**». قالت: فأمروا أبا بكر يصلي بالناس. قالت: فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله ^ من نفسه خفة فقام يهادى بين رجلين، ورجلاه تخطان في الأرض. قالت: فلما دخل المسجد سمع أبو بكر حسه فذهب يتأخر فأومأ إليه رسول الله ^ (أن أقم مكانك) فجاء رسول الله ^ حتى جلس عن يسار أبي بكر فكان رسول الله ^ يصلي بالناس وأبو بكر قائمًا يقتدي بصلاة النبي ^ ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر). متفق عليه.

ولا شك أن هذا الإصرار من النبي ^ على تقديم أبي بكر في الصلاة يشير إلى أفضليته وأعلميته، وأنه لا ينبغي أن يتقدم عليه أحد ولو كان هو الفاروق عمر !

وهذا في آخر أيامه ولا شك في دلالته على أن النبي ^ يريد لأبي بكر ﷺ أن يخلفه في إمامة المسلمين السياسية كما خلفه –بإرادته الجازمة – في الإمامة الدينية.

آخر صلاة لرسول الله ^ إماماً بالأمة :

إن هذه الصلاة وهي آخر صلاة صلاها النبي المصطفى إماماً بالأمة تمثل ما أراد الله ورسوله وما وقع على مرادهما أصدق تمثيل: إن جلوس النبي ^ وقيام أبي بكر ﷺ رمز إلى قيام أبي بكر بالأمر كله من بعده. إنه جلس وسيغادر الحياة. إن قيام أبي بكر بالأمر إنما هو من خلف رسول الله ^ فأبو بكر ﷺ متبع له في قيادته وإمامته للأمة والناس مؤتمون بأبي بكر الذي هو مؤتم بالنبي ^ .

ألا ما أروعها من صورة!! فمن أولى من صاحبها بولاية الأمر بعد (صاحبه) ؟!

وعن عبد الله بن زمعة ﷺ قال : لما استُعِز برسول الله ^ وأنا عنده في نفر من المسلمين دعاه بلال إلى الصلاة فقال: «مروا من يصلي للناس» فخرجت فإذا عمر في الناس وكان أبو بكر غائباً فقلت: يا عمر قم فصل بالناس فتقدم فكبر فلما سمع رسول الله ^ صوته وكان عمر رجلاً مجهراً قال: «فأين أبو بكر! يأبى الله ذلك والمسلمون يأبى الله ذلك والمسلمون» فبعث إلى أبي بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس. رواه أبو داود وأحمد.

(٥٤)أبو بكر الصديق – علي محمد الصلابي ص١٣٥.

وعن أنس قال: لم يخرج إلينا نبي الله ^ ثلاثاً فأُقيمت الصلاة فذهب أبو بكر يتقدم. فقال نبي الله ^ بالحجاب فرفعه، فلما وضح لنا وجه نبي الله ^ ما نظرنا منظراً قط كان أعجب إلينا من وجه النبي ^ حين وضح لنا. قال: فأومأ نبي الله ^ بيده إلى أبي بكر أن يتقدم، وأرخى نبي الله ^ الحجاب. فلم نقدر عليه حتى مات. متفق عليه.

وأخرج البخاري عن محمد بن الحنفية أنه قال: قلت لأبي (أي علي): أي الناس خير بعد النبي ^ ؟ قال: أبو بكر قلت: ثم من ؟ قال: عمر وخشيت أن يقول: عثمان قلت: ثم أنت قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين.

وروى الإمام أحمد عن عبد خير الهمداني ووهب بن عبد الله (وكان من شرط علي وكان يسميه وهب الخير) أن عليًّا ﷺ خطبهم على منبر الكوفة فقال: (ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر. ثم قال: ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد أبي بكر: عمر ﷺ.

وبينما كان علي ﷺ يقضي في الكوفة إذ قال رجل: يا خير الناس انظر في أمري فوالله ما رأيت أحداً هو خير منك. قال: قدموه فقدم فقال له: هل رأيت رسول الله ^ ؟ قال: لا. قال: هل رأيت أبا بكر وعمر؟ قال: لا قال: لو أخبرتني أنك رأيت رسول الله ^ لضربت عنقك، ولو أخبرتني أنك رأيت أبا بكر وعمر لأوجعتك ضرباً.

الحكمة في اختيار الصديق ﷺ إماماً للأمة :

لم يكن إجماع الأمة على إمامة الصديق ﷺ عبثاً، فإنها معصومة لا تجتمع على ضلالة. ولا اختيار النبي ^ له اعتباطاً. ولم يجعل الله تعالى هذه المزايا ولا الخصائص في غير محلها – حاشاه – فإنه عليم حكيم وهو أعلم حيث يجعل فضله ونعمته:﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ * فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الحجرات:٧،٨].

وقد تجلت حكمة اختيار الله تعالى ورسوله ^ وصحة إجماع الأمة على إمامة الصديق وخلافته لرسول الله، في سياسته وإنجازاته الرائعة التي حققها رغم قصر المدة التي حكم فيها الأمة وتسلم فيها قيادتها! إن هذا يستدعي منا أن نرسم صورة – ولو مصغرة – عن هذا الجانب العظيم من جوانب عظمة الصديق وعبقريته.



القاعدة الثالثة

سياسة الصديق وإنجازاته

السياسة باختصار هي: فن قيادة الجماهير.

ومنصب الخلافة منصب سياسي. فمن كان الأكفأ في هذا الفن فهو الأولى بهذا المنصب، وإن وجد معه من هو أكثر تديناً وورعاً؛ لأن الأمور العبادية البحتة – وإن كانت معتبرة في شـروط الاختيار – إلا أن الملحظ السـياسـي هو الأرجح في الميزان؛ إذ لا يشـترط في الخليفة أو الأمير أن يكون الأعبد والأورع – وإن كان لا بد من توفر الحدود المقبولة من التدين – إنما يشترط فيه أن يكون الأكفأ في فن السياسة والقيادة، ولا تقبل منه الحدود الدنيا في هذا الفن.

ولو خيرنا بين رجلين: أحدهما أعبد الناس، لكنه ضعيف الشخصية، ضعيف الخبرة في السياسة، والآخر دونه في العبادة لكنه أقوى شخصية وكفاءةً سياسيةً وجب علينا اختيار الثاني أميراً أو خليفة؛ لأن علاقته بالأمة تحددها الكفاءة السياسية والقيادية أكثر من الناحية العبادية.

إن قوة القائد وضعفه للأمة أو عليها. أما عبادته فله وحده.

على هذا الأساس كان النبي ^ يختار قادته السياسيين والعسكريين: فقد أرسل مصعب بن عمير سفيراً عنه إلى يثرب يدعوهم إلى الله، ويتألف كبارهم ورؤساءهم ويمهد الطريق للهجرة من أجل إقامة دولة الإسلام. فهدى الله تعالى على يديه جمهورهم في غضون سنتين فقط !

ولولا معرفة النبي ^ بمقدرته السـياسـية وقدرته التأثيرية في النفوس لما أرسـله. ولو كان الأمر بالعبادة لأرسل من هو أعبد منه كعلي أو بلال مثلاً.

وأمّر عمرو بن العاص في اليوم الثاني من إسـلامه، وكذلك خالد بن الوليد وأبا سـفيان بن حرب وأمثالهم. ولا شك أن في صحابته ^ من هو أعبد وأورع.

وفي الوقت نفسه نهى أبا ذر عن طلب الإمارة، وأوصاه قائلاً: «**يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي فلا تأمَّرَنَّ على اثنين ولا تولين على مال يتيم**»[٥٥]. والضعف هنا ضعف الكفاءة القيادية لا العبادية؛ فإن النبي ^ قال فيه: «**ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق من ذي لهجة ولا أوفى من أبي ذر شبه عيسى بن مريم عليه السلام**»[٥٦].

ومع أن الصـديق كان هو الأعبد والأورع و(الأتقى)، لكن أريد أن أدرس شـخصـيته من الناحية السياسية، لتصل معي إلى أنه الأكفأ أيضاً من بين الصحابة حتى في هذه الناحية!

لقد أسلمت الخلافة لأبي بكر ﷺ قيادها، وألقت بين يديه برأسها، فصار يجرها من قرنيها! فمن هو الأولى منه بمقدمها وحاذييها ؟!!

نظرة عامة في سياسة الصديق[٥٧]

كشفت وفاة الرسول ^ حاجة المسلمين إلى تنظيم السلطة بعد أن أنجزوا أروع عملية نقل للسلطة في التاريخ من خلال بيعة خليفة من الصحابة يخلف رسول الله ^، وليس لديهم مما تقتضيه السلطة غير النص القرآني الذي يفرض على المؤمن إطاعة الله وإطاعة الرسول ^ وأولي الأمر من المؤمنين.

---

(٥٥)رواه مسلم.
(٥٦)رواه الترمذي وحسّنه وأحمد وابن ماجة.
(٥٧)هذا المبحث مستل من كتاب (أبو بكر الصـديق ﷺ) تأليف الدكتور نزار الحديثي والدكتور خالد جاسم الجنابي ص٢٥–ص٢٩.

وكان أبو بكر الصديق يدرك هذه الاعتبارات ويدرك نظرة القرآن للسلطة، وتربى على فهم الرسول ^ وتطبيقه لها(٥٨).

خطبته الأولى :

كذلك عبر في خطبته الأولى عن هذا الإدراك بعبارات واضحة ومحددة ودقيقة، فكانت هذه الخطبة التاريخية تلخيصاً موجزاً لسياسته، جمع في كلماتها القليلة خير ما يمكن لحاكم أن يقوله لشعبه عن علاقته القادمة بهم، وسياسته لهم. فكان أن قال: (أما بعد أيها الناس ! فإني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عندكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله).

فهو إذن واحد من المؤمنين تولى شؤونهم وله عليهم حق الطاعة حسب الآية الكريمة .

غير أن الطاعة مشروطة بطاعة الله ورسوله ^ فهو كما قال: (متبع وليس بمبتدع) مهمته: إدارة شؤون المسلمين على الوجه الذي يقتضيه الإسلام فإذا ما انتفت هذه الأسس فلا طاعة له على الناس.

هذا – عمليًّا- يعني أن السلطة أصبحت تستمد من المبادئ وتقوم على رضا الأمة مع الوعي بأن رأس السلطة أحد المؤمنين. وله من الصفات ما تجعله موضع ثقة الأمة واختيارها: فهو أول المسلمين، وكان موضع ثقة الرسول ^ التامة، ومعروفاً: باستيعابه للعقيدة والخبرة بتاريخها السياسي، والتمرس في الجهاد من أجلها.

أو كما وصفه علي ﷺ : (رجل اختاره الرسول ^ لدينهم فرضوه لدنياهم وقدموه) (٥٩).

خليفة الرسول :

انطلق الخليفة أبو بكر الصديق في فهم السلطة من الموقف الذي أشارت إليه آيات القرآن الكريم. وإذا كان موقف القرآن الكريم من المصطلحات التي تعكس شكلاً من أشكال السلطة مؤثراً في تحديد مفهوم السلطة في الإسلام، فالقرآن كان إلى جانب مصطلح (خليفة) فيكون اختيار المسلمين لهذا اللقب لقباً للرجل الذي يدير الدولة بعد الرسول ^ اتفاقاً واعياً يعكس وعيهم ليس لطبيعة السلطات وحسب إنما لأدق تفاصيلها أيضاً، ويعبر عن مستوى عالٍ من الإيمان لدى المسلمين. وكان على الخليفة أن يؤكد بعض الحقائق الأساسية التي ستقوم سلطة الخليفة عليها. وظهر من ممارساته الحقائق التالية:

أولا: أنه خليفة وليس رسولاً. وأن الرسول ^ قد مات، غير أن الدين باق. وإذا كان الخليفة قد واجه جزع المسلمين لوفاة الرسول ^ وذهولهم عن الآية الكريمة: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ - فإنه في الحقيقة أكد أيضاً تميز السلطة في عهد الخليفة عن السلطة في عهد الرسول ^ .

ثانياً: إن سلطة الخليفة تأتي مباشرة بعد سلطة الرسول ^. وهذا يحتم أن تكون أعماله وتصرفاته محكومة بما كان لدى الرسول ^ لكي يؤكد (استمرار الدين)، لهذا حرص في إحدى خطبه أن يؤكد هذه المسألة بقوله: (إنما أنا متبع ولست بمبتدع) فاستمرار الدين سوف يعبر عنه في أحد أبرز جوانبه باستمرار سياسة النبي ^.

---

(٥٨)سيأتي الحديث عن دور الصديق الرائع وأدائه الحكيم في نقل السلطة.

(٥٩)روى النسائي وأحمد أن عمر بن الخطاب ﷺ قال للأنصار: ألستم تعلمون أن رسول الله ^ قد أمر أبا بكر أن يصلي بالناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ قالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر . وقد صحح إسناده أحمد شاكر (٢١٣/١) رقم (١٣٣) كما جاء في كتاب (أبو بكر الصديق) لعلي محمد الصلابي ص١٢٧.

ثالثاً: إن كونه خليفة وليس رسولاً يعني أن الخلافة ستقوم على حقه في أنه أحد الصحابة، تعارفوا عليه واختاروه. فعلاقته بالسلطة أنــه اختير لقيادتها، وعلاقته بالرعية أنه اختير لثقتهم بأنه الأقدر على قيادة السلطة، فهو موضع رضاهم. وأساس الرضا حسن إدارته السلطة وحسن قيادتهم، وهو ما يوجب الطاعة له عملاً بالآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾غير أنــه ملزم بالمشورة أيضا عملا بالآية الكريمة : ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾فإذا ما ارتكب الخليفة ما يمس الدين ويسيء قيادة المسلمين فلا طاعة له».

استمرار تام لسياسة الرسول :

لقد كان أبو بكر مدركاً قيمة الطاعة وثقة الناس به من تجربته في تصــديق الرســول ^ وطاعته في كل ما قال وعمل. وقد رأينا كيف عبر عن تصديقه للرسول^ وطاعته له في أحداث مثل نزول الوحي وقصة الإسراء والمعراج وأحد والحديبية، لذلك أظهر حرصاً شديداً على الارتكاز إلى مبدأي الصدق والرضا وصولاً إلى التصديق والطاعة. وكان حريًّا في هذا المجال أن يؤكد استمرار سياسة النبي ^ ليضمن تثبيت السلطة لهذا نجده:

أولاً: يبقي على عمال الرسول ^ الذين استخدمهم قبل وفاته في أنحاء مختلفة في جزيرة العرب، فلم يعزل أحدهم.

ثانياً: الإصرار على إنفاذ جيش أسامة.

ثالثاً: الإصـرار على حسـم الموقف مع المرتدين نهائيًّا لصــالح الإسـلام ودولته دون أي تنازل من أجل تثبيت السلطة.

رابعاً: الحرص على موقع الصحابة – والكبار منهم خاصـة – في المجتمع الجديد وفي اتخاذ القرار .

ويعبر تطبيقه للشـورى في مسـألتين أسـاسـيتين عن هذا الحرص: ففي مناقشــة الأوضــاع بعد وفاة الرسول ^ وأولوية الخطوات الواجب اتخاذها، كذلك في الموقف من المرتدين، صـورة لتطبيق فلسفة الشورى تدلل على المكانة التي حددها الخليفة للصحابة وللعشرة الكبار الذين أشارت الروايات إلى أن الرسول ^ بشرهم بالجنة ومنها عرفوا بالعشرة المبشرين بالجنة وهم – مع الخليفة – كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعيد بن زيد.

وقد أشــار الخليفة أبو بكر إلى هؤلاء العشــرة في أول اجتماع لهم بعد وفاة الرســول ^ ومبايعته بالخلافة: «انه قد علمتم أنه كان من عهد رسـول الله إليكم المشـورة فيما لم يمض فيه أمر من نبيكم ولا نزل به الكتاب عليكم).

غير أن الخليفة حرص أيضـاً بنفس القدر على إعطاء الأنصـار موقعهم في القرار إلى جانب القيادة التاريخية للمجتمع الجديد. فقد استشار أسيد بن حضير في استخلاف عمر بن الخطاب ا.هـ .



سياسة الصديق من خلال إنجازاته

هناك أربعة معالم بارزة في حياة الصديق أثناء توليه الحكم تتجلى من خلالها- رغم قصر الفترة! - عبقريته السياسية، وعظمة شخصيته القيادية. وهي - في الوقت نفسه - عبارة عن إنجازات ضخمة لا تتهيأ إلا لعظماء الساسة وعباقرة مؤسسي الدول، وقادة الأمم العظام.

هذه الإنجازات هي:

- القضاء على الفتن الداخلية.
- التصدي للأخطار الخارجية، والجهاد في سبيل نشر رسالة الإسلام.
- حفظ الدستور الإسلامي وجمع القرآن العظيم .
- حسم معضلة ولاية الأمر من بعده .
- سأتناولها بالحديث واحدة واحدة :

١- القضاء على الفتن الداخلية :

في يوم وفاة النبي ^ بدأت الفتن داخلية وخارجية تطل بقرونها. كانت الفتنة الداخلية – طبقاً لطبيعة الحال – أخطرهما، وكانت ذات ثلاث شعب: شعبتان كانتا وشيكتي الوقوع، والأخرى قد وقعت وهي في طريقها لأن تنفلت من عقالها.

فكان على أبي بكر أن يتحرك - وبأسرع ما يمكن - لمعالجة هذا الخطر: فيوطد الأوضاع، ويضبط الأمور في داخل العاصمة أولاً. لينطلق بعدها لإخماد الفتنة التي انطلقت لتغطي مساحة الجزيرة كلها تقريباً.

أ. توطيد الأوضاع في العاصمة :

نبأ الوفاة وأثره على أهل المدينة :

أما الشعبتان الأُولَيان فإحداهما: اضطراب الصحابة وانهيارهم عند سماعهم نبأ الوفاة الصاعق ! فصاروا لا يدرون ما يفعلون؟ إنهم لا يريدون أن يصدقوا الخبر لهوله! وعمر يهدد بسيفه ويوعد من يقول : (إن رسول الله ^ قد مات) !

الكل في اضطراب وذهول والمسجد غاص بالناس، وعثمان وعلي أقعدا لثقل المصاب يبكيان!

ولكن الأمور بمجيء أبي بكر تأخذ منحى آخر!

ينتظم العقد المنفرط ، ويعود كل شيء إلى مكانه ونصابه.. وبكلمة واحدة من أبي بكر وهو على المنبر: (يا أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ! ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

وتخشع الأصوات وتهدأ الحركات ويفيقون من صدمتهم وترجع إليهم أحلامهم. ويعج المسجد بتلاوة الآية الكريمة المباركة كأنها نزلت لتوها!

نقل السلطة وكيف تم على يد الصديق:

وما إن ينتهي أبو بكر من علاج الموقف حتى تطل الشعبة الثانية، ويأتي الخبر إليه – لا إلى غيره؛ فهو في نظر الجميع رجل الموقف والمسؤول الأول والأكبر بعد النبي ^ – يأتيه الخبر بأن إخوانهم الأنصار قد اجتمعوا فيما بينهم ليبايعوا سعد بن عبادة.

ويُهرع أبو بكر – أبو بكر لا غيره – ليعالج الموقف الذي استجد - وكان أعظم من سابقه- ويحسم الفتنة قبل أن تنطلق. إنها (أكبر مشكلة تواجه الدول الناشئة وتهددها بالزوال أو الانقسام وهي ولاية الأمر بعد المؤسس الذي غادر الحياة).

ولو لم يعالج أبو بكر بحكمته الموقف الأول، ويسارع – بحكمته أيضاً وحنكته – إلى علاج الموقف الجديد لظل الصحابة يضطربون في مسجدهم، ويتأوهون لهول مصابهم، ولبايع الأنصار سعداً وقضي الأمر وهم ينظرون لا يعرفون ماذا يفعلون!

ولو حدث ذلك لتفرق الصحابة فِرَقاً ، فإن سعدًا ليس ممن تجتمع عليه القلوب، وليس هو المؤهل لأن يخلف رسول الله ^ ، وله معارضون حتى من الأنصار أنفسهم ! بل الذي جاء إلى أبي بكر بالخبر رجل من الأنصار. وأما المهاجرون فلا يتوقع أن يرضوا به أميراً، ولا العرب في الجزيرة يمكن أن يخضعوا لرجل من غير قريش. فماذا ستكون النتيجة؟!

إن النتيجة المتوقعة هو التفرق والتشرذم. وقد تكون القضاء المبرم على دولة الإسلام وهي في مهدها ! لأن الجزيرة العربية قد انتقضت إلا أقلها. ومن ثبت على دينه وموقفه كمكة المكرمة والطائف قد لا يغني كثيراً عن العاصمة لبعد المسافة وبطء وسائل المواصلات. فإذا افترضنا أن أهل العاصمة قد اختلفوا وتفرقوا فمن للأمة؟ والأمة قد ضربت في صميمها ومركز قيادتها، والخارجون على أبوابها، والفرس قد دخلوا البحرين! [٦٠]والروم صاروا يفكرون في التحرك استغلالاً للظرف الجديد !!

ولكن أبا بكر يتمكن – وبسرعة خاطفة – من القضاء على هذه الفتنة التي كادت أن تقع، وقبرها في مهدها وأنقذ الأمة من الانزلاق إلى بحر من الفتن لا ساحل له !

ب- مواجهة حركة الخروج والارتداد في الجزيرة :

اتخاذ قرار القتال :

أما الشعبة الثالثة من شعب الفتنة الداخلية فهي حركة الارتداد التي اجتاحت الجزيرة العربية.

يقول العقاد: (وجاءت حروب الردة التي هي مفخرة أبي بكر الكبرى غير مدافع أو هي مفخرته الخاصة التي انفرد بها في تاريخ الدعوة الإسلامية بغير شريك .. ولقد أكثر المؤرخون من الكتابة عن حروب الردة ما لم يكثروا قط في حادث من حوادث صدر الإسلام وكانوا على حق حين وازنوا بين دعوة الإسلام الأولى في مقاومة الشرك ودعوة الإسلام الثانية في مقاومة الارتداد ، فإنما كانت الغلبة على فتنة المرتدين فتحاً جديداً لهذا الدين الناشئ كأنما استأنفت الدعوة إليه من جديد .. إنها أصدق امتحان للدعوة المحمدية خرجت منه دعوة من الدعوات.

فإذا كانت فتنة الردة قد كشفت عن زيغ الزائغين وريبة المرتابين فهي قد كشفت كذلك عن الإيمان المتين والفداء السمح واليقين المبين فحفظت للناس نماذج للصبر والشجاعة والإيثار والحمية تشرق بها صفحات الأديان، وجاءت الشهادة الأولى على لسان رجل من أصحاب طليحة سأله: ويلكم ما يهزمكم ؟ فقال له: أنا أحدثك ما يهزمنا، إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله. وإنا لنلقى قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه !

...

---

(٦٠)أمد الفرس المرتدين في البحرين بتسعة آلاف. وكان عدد المرتدين ثلاثة آلاف والمسلمين أربعة آلاف / فتوح بن أعثم ص٤٧. نقلاً عن كتاب (أبو بكر الصديق) لعلي محمد الصلابي ص٢٨١.

تلك فتنة الردة .. قابلها أبو بكر ﷺ بأحزم ما تقابل بها من مبدئها إلى منتهاها، وعالجها علاجها في كل خطوة من خطواتها وفي كل ناحية من نواحيها. فبادرها بالحزم من صيحتها الأولى وتعقبها بالحزم يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى أسلمت مقادها وثابت إلى قرارها.

وأحزم الحزم في تلك الفتنة عقابه للمرتدين الذين مردوا على العصيان ولم يستجيبوا نصيح المودة ولا استجابوا نذير الجزاء. فقد كان العقاب أليق شيء بالوزر الذي اجترموه ومردوا عليه: أناس قد استوهنوا سلطان الدين وبخلوا بالمال فبلغ من شحهم به أنهم أنكروا حقوق الدين كله في سبيل حصة من الزكاة فجزاؤهم أن يشهدوا من بأس ذلك السلطان ما يعتبرون به ولا ينسونه مدى الحياة، وأن يفقدوا المال الذي من أجله تبادروا إلى الفتنة واستبقوا إلى العصيان فاستبيحت ديارهم ومراعيهم ومساقيهم، ووهبت عطاياهم للمجاهدين؛ ولأن خالد في بعض المواقع وأبو بكر الوديع الرفيق لا يلين !!

ووضع القصاص فيمن تجاوزوا منع الزكاة إلى قتل المسلمين بين ظهرانيهم فلم تأخذه فيهم هوادة بعد إصرارهم على العصيان، واعتدائهم بالقتل وإعراضهم عن النصيح والنذير.

جزاء حق لأنه من جنس العمل:

استهانة يقابلها بأس، وبخل بالمال يقابله ضياع للمال، ونفس بنفس. ومجاهدون مخلصون يؤثرون الإيمان على عروض الدنيا أخذاً بثأرهم من عصاة غادرين يؤثرون عروض الدنيا على الإيمان.

قال أبو رجاء البصري: دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلاً يقبل رأس رجل ويقول له: أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا.

قلت: من المقبِّل ؟ ومن المقبَّل ؟ قالوا: هو عمر يقبل رأس أبي بكر في قتال أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين ..

وقد شاء القضاء أن يكون أبو بكر بطل الإسلام في حروب الردة غير مدافع فهو صاحب الشرف الأول بين ذوي الرأي وذوي العمل في تلك الحروب وكأنما عمر قد وضع بشفتيه شفاه المسلمين جميعاً على ذلك الرأس الجليل يوم انحنى عليه بالتكريم والتقبيل. [٦١]

***

---

(٦١)مقتطفات من كتاب عبقرية الصديق لعباس محمود العقاد – انظر موضوع الصديق والدولة الإسلامية.

تفرد في استخراج الرأي الفقهي واتخاذ القرار العسكري :

لقد انفرد أبو بكر باستخراج الرأي الفقهي في شرعية قتال أقوام يقولون: (لا إله إلا الله) وذلك أمر عسير حتى أقنع المعترضين بصواب رأيه وأوضح لهم ما التبس عليهم فكانوا من الموقنين.

وتفرد باتخاذ القرار في تنفيذ هذا الرأي وتطبيقه رغم الظروف العصيبة المحدقة بهم ! والتي يفرض ظاهرها العدول عن هذا القرار وتأليف الناس أو التريث فيه على الأقل.

وفي الوقت الذي يشير فيه الصحابة عليه بعدم القتال ، ويقول صناديدهم أن لا طاقة لهم بقتال العرب يقف من بينهم أبو بكر كالجبل الأشم يستثير إيمانهم ويثير نخوتهم ويقول:

(.. أيها الناس ! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

أيها الناس ! إنْ كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ! والله ليظهرن هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون، قوله الحق ووعده الصدق:

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

و ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أيها الناس! لو (أُفردت) [٦٢] من جمعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده حتى أبلغ من نفسي عذرًا، وأقتل مقتلاً !

والله أيها الناس ! لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه واستعنت بالله خير معين) !!!

لقد كان مصيبًا – كل الإصابة – في رأيه الفقهي وقراره العسكري!! وبعيدًا – كل البعد – في نظره الديني والسياسي !!

ترى! ماذا كان سيكون لو أنه رضخ للضغوط ولان للظروف فغض الطرف عن عصيان العاصين وسكت عن الخارجين فلم يعاقبهم عقوبة الدين أو يواجههم بما ينبغي من حزم الحاكمين ؟

أليس التساهل في ركن من أركان الدين سيؤدي – ولا بد – إلى ترك ركن آخر احتجاجاً بالأول ؟! ... وهكذا سيأتي جيل يترك الصيام وآخر يترك الصلاة ورابع وخامس يترك الحج والجهاد ...إلخ ! فإذا بالدين قد انهدم وعقده قد انفرط !!

إذن ! لا بد من سد باب الفتنة من أساسه. والله تعالى يقول: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾[التوبة:٥].

هذا من ناحية النظر الديني البحت .

وللزكاة جانب سياسي – هو من الدين بمعناه الأشمل – لا يخفى على رجال الحكم والساسة المتمرسين.

إن لكل حكومة على رعيتها التزاماً ماليًا يعبر عن اعترافها بنظام حكومتها السياسي. إن الامتناع عن أدائه إعلان عن العصيان والتمرد على النظام وعدم الاعتراف بالحكومة.

ولا قيمة - بعد – للعلاقة القائمة بين رعية أو شعب وبين حكومته! وبعبارة أخرى: لا قيمة – بعد – لحكومة علاقة شعبها أو رعيتها بها على هذه الصورة !

---

(٦٢)تأمل هذه الكلمة تجدها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ (التوبة:٤٠).

إن على الشعب أن يرضخ لمنطق العدل والقوة، أو على الحكومة أن تغادر موقعها !

لقد كان الصديق – وهو التلميذ النجيب والصاحب الرفيق لأعظم حاكم سياسي في التاريخ – يدرك تمام الإدراك أن الامتناع عن أداء الزكاة إعلان عن عدم اعتراف الممتنعين بالنظام السياسي لحكومته فإذا أقرهم عليه فقدت حكومته هيبتها وكانت الرعية الممتنعة أكثر جرأة على عصيانه في أمور أخرى لا سيما الجهاد لتبليغ رسالة الدين. وهكذا تنهار الحكومة، وتتفكك الدولة، بعد أن انهار الدين وانهدمت أركانه !

لقد أدرك الصديق ذلك كله بثاقب نظره، فلم تستفزه المصالح الوقتية القريبة عن المصالح الحقيقية الدائمة. وكان لقتاله المرتدين أكبر الأثر في حفظ الدين وتثبيت أركان الدولة وفرض هيبتها وسلطانها ولولاه لضاع الدين.. والدنيا كذلك.

إنفاذ جيش أسامة !

وعاد الصحابة يرجونه أن يرد جيش أسامة بن زيد ليستعينوا به في قتال الخارجين على الدين والقانون، فيأبى الصديق أشد الإباء، ويصمم تصميماً لا رجعة فيه إلا أن ينفذه ! إنه موقف تعنو له الجباه، وتتواضع له الجبال !

فمع قمة الإيمان والثقة بوعد الله، وغاية الشجاعة، وكمال الإتباع لأوامر النبي ^ القائد حيًّا وميتًّا مهما تغيرت الظروف وكلفت الأمور! تبرز مع ذلك كله العبقرية السياسية في القدرة على استقراء الأحداث وتحليل الوقائع واستكناه التوقعات لرؤية المستقبل ورسم خريطته والتصرف في خطوطها لتكون حسب المطلوب، وذلك رغم اشتداد الغبار واشتباه الأمور!

إننا حينما نقرر هذا ونقول بأن الصديق كان مصيبًا وعبقريًّا في إصابته الهدف، إنما نقول ما نقول وأمامنا الأحداث نقرأها جميعاً في صفحة واحدة؛ فيكون من السهل أو المتيسر استقراءُها وتحليلها والربط بينها للحصول على النتائج وتشخيص الخطأ من الصواب من المواقف والأفعال.

أما أبو بكر فقد عَلِمَ عِلْمَ اليقين بأن الصواب في ذلك الرأي والحكمة في ذلك القرار، والحزم في ذلك الموقف مع أن الأحداث ونتائجها لما تزل في باطن الغيب !! وأن كل الاحتمالات واردة سيما وأن الرأي المعاكس هو الغالب وهو الأقرب إلى ظاهر العقل والحكمة!

ولو افترضنا أن الرياح هبت في الاتجاه الآخر وحلت الهزيمة لكان المسؤول الأول والأخير عنها هو لا غيره. ولكان لنا أو للتاريخ حكم آخر !

وهنا تتجلى الرجولة والعبقرية والنظر الثاقب وسط عواصف الأحداث ومدلهمات الخطوب !

يقول العقاد: ولقد يكون في صوابه إلهام، أو تكون فيه روية وقصد مرسوم ولكنه سداد على كل حال ، ووجهة قويمة هي أدنى الوجهتين إلى النفع والصلاح.

بعثة أسامة كانت العنوان الأول لسياسة عامة في الدولة الإسلامية - هي في ذلك الحين – خير السياسات.

كان قوامها كله طاعة ما أمر به رسول الله ^.

وكانت الطاعة – جد الطاعة – مناط السلامة وعصمة المعتصمين من الخطأ الأكبر في ذلك الحين.

وحيث يكون التمرد هو الخطأ الأكبر ، فالطاعة – بل الطاعة الصارمة – هي العصمة التي ليس من ورائها اعتصام.

وقد كان التمرد هو الخطر الأكبر في ذلك الحين لا مراء :

كان النفاق يطلع رأسه في مكة والمدينة.

وكانت القبائل البادية تتسابق إلى الردة في أنحاء الجزيرة.

وكان جند أسـامة يود لو اسـتبدل به أميرًا غيره. وكان أسـامة أول من يشـك في طاعة القوم إياه ويترقب أن يخلفه على البعثة أمير سواه.

تمرد أو نذيرُ تمردٍ في كل مكان .

وطاعة واجبة هنا حيث نبع التمرد، أو لا سبيل إلى واجب بعد ذلك يطاع.

طاعة أو لا شيء.

فإن بقيت الطاعة بقي كل شيء.

وهنا تسعف الصديق طبيعة هي أعمق الطبائع فيه أو هي العبقرية الصديقية في أوانها وعلى أحسن حال تكون.

هنا تسعفه القدوة القويمة بالبطل المحبوب.

وهنا يقول وقد خوفوه الخطر على المدينة والجيش يفارقها:

(والله لا أحل عقدة عقدها رسـول الله، ولو أن الطير تخطفتنا والسـباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة).

كلمة لو قالها غير أبي بكر لكانت عظيمة. ولكن الذي يقولها أبو بكر وبنته أعز أمهات المؤمنين.

فلا خطر إذن أكبر من خطر الاجتراء على حق الطاعة في تلك الآونة، ولو جرت الكلاب بأرجل البنات والأمهات !...

ولقد ضرب المثل الأول في الطاعة التي أرادها فشيع البعثة وهو ماش على قدميه وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجواره فقال أسـامة: يا خليفة رسـول الله، والله لتركبن أو لأنزلن. فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركب، وما عليّ أن أغبر قدمي في سـبيل الله سـاعة ... ثم قال لأسـامة: اصـنع ما آمرك به رسول الله ^.. ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله.

ويتساءل العقاد: ماذا كان يحدث لو أن قبائل غسان وقضاعة استضعفت شأن المسلمين وفي أيديها الطريق بين بلاد العرب وبلاد الروم ؟

كل شيء جائز أن يكون !

وأوله إغراء الروم بالهجوم، ولهم عون من تلك القبائل ومن يجتمع إليها من المجترئين والمتحفزين .. ولقد أدرك أناس في عصر أبي بكر صواب الرأي في إنفاذ تلك البعثة بعد إنفاذها وعودتها فشاع في الجزيرة خبرها .. وروى مؤرخو تلك الفترة أنها كانت لا تمر بقبيل يريدون الارتداد إلا تخوفوا وسكنوا وقالوا فيما بينهم: لو لم يكن المسلمون على قوة لما خرج من عندهم هؤلاء !

فإذا كان بقاء أسـامة بالمدينة جائزاً لدفع خطر، فإرسـاله كذلك جائز لدفع خطر مثله. وفازت الدولة بين هذا وذاك بدرس الطاعة وهو يومئذ ألزم الدروس.

ولا تجهل قبائل البادية ما هي دولة الروم التي اجترأ الجيش على تخومها في غير مبالاة ! إنهم يعلمون ما هي دولة الروم بالعيان، أو يعلمون ما هي دولة الروم بتهويل الســماع. وجيش يذهب إلى تخوم تلك الدولة ثم يعود غير مسحوق ولا منقوص، بل يعود بالغنائم والأسلاب كيف تستخف به قبيلة هائمة في عرض صحراء؟

إن جيش أســامة قوة ذات بال في الجزيرة العربية، ولكنه فعل بســمعته ومعناه ما لم يفعله بقوته وعدده فأحجم من المرتدين من أقدم وتفرق من اجتمع، وهادن المســلمين من أوشــك أن ينقلب عليهم وصنعت الهيبة صنيعها قبل أن يصنع الرجال وقبل أن يصنع السلاح[٦٣]ا.هـ.

ولقد كان أبو بكر يدرك حجم قوة دولة الروم، ويعلم أن التحرش بها ليس تســلية ولا نزهة، فلولا اعتقاده الجازم بقدرته على مواجهة جميع الاحتمالات لما غامر هذه المغامرة ! فمن أين جاءت القوة لأبي بكر في ذلك الظرف العصيب وكل الدلائل تشير إلى غير ما ذهب إليه ؟! وما هي مصادر الثقة المطلقة بالنتائج الإيجابية لما يصــنع وهي لما تزل نطفة في رحم الغيب المجهول ؟! إنها قوة الإيمان الراسخ والنظرة البعيدة الثاقبة والسياسة الحكيمة الصائبة.

***

أبو بكـر وفن إدارة الأزمـة[٦٤] :

بعد أن أنجز المســلمون أروع عملية نقل للســلطة (من نبي إلى خليفة) أصــبح الخليفة أمام المهام الرئيســية المطروحة وهي بمجملها مهام فرضــها الظرف التاريخي للإســلام في آخر ســنة من حياة الرسول^، وبعضها فرضتها الظروف الناجمة عن وفاته^. وإذا كان الخليفة قد حدد نظرته إلى السلطة وشكل قيادته للمسلمين فإنه في مواجهة المهام التي فرضتها الظروف واجه صعوبة كبيرة . فهو في آن واحد كان مطالباً:

بتثبيت سياسة الرسول ^.

وتعزيز الثقة بالذات لدى الصحابة.

وإبقاء المرتدين في:

أ- موقف البعثرة والتشتت .

ب- ثم الانكفاء والهزيمة .

والراجح أنه من خلال إنفاذ جيش أسـامة بن زيد ، وحسـم الموقف الاجتهادي من المرتدين وتطبيق مبدأ الشورى حقق الأمرين الأولين.

أما الأمر الثالث فإن خطواته استغرقت وقتاً طويلاً يبدأ منذ تحرك أسامة بن زيد شمالاً إلى الشام في آخر ربيع الأول سنة ١١هـ إلى تسيير الجيوش الخمس نحو الشام والعراق سنة ١٢هـ .

ويمكننا تتبع هذه الخطوات على النحو التالي :

تحشيد القبائل :

---

(٦٣)المصدر نفسه.
(٦٤)أبو بكر الصديق ﷺ - د. نزار الحديثي ، د. خالد جاسم الجنابي ص٣٠ ص٣٦ .

أولاً: بمجرد أن سيَّر الخليفة جيش أسامة قام بتحشيد من بقي من القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم وصيرهم مسالح حول قبائلهم[٦٥]... لقد حققت هذه الخطوة أهدافًا تعبوية متعددة:

فهي أولاً: عزلت المسلمين من القبائل عن غير المسلمين، وأقامت حاجزاً نفسيًّا بين الطرفين يحول دون اهتزاز قناعة المسلمين بسبب قلتهم، وإزاء الضغط والقتل من مشركي قبائلهم.

وأوجدت خطوطاً دفاعية حول المدينة وطورت نظام الدفاع الذاتي عن النفس وتحمل مسـؤولية المبادرة واتخاذ القرار.

٢ – الحرب بالرسل أو سياسة الإلهاء :

ثانياً: اتباع سياسة النبي ^ في إلهاء المرتدين بالرسل فكلما ورد رسول بخبر قوم رده برسالة وأتبع الرسل بالرسل تأجيلا للمصادمة لحين عودة جيش أسامة.

ويبدو أن هذه السياسة كانت فعالة وحققت أهدافها؛ لأنها أبقت عامل الزمن الناجم عن غياب جيش المدينة (أربعون يوماً) إيجابيًّا لصالح الخلافة. وبالتالي أبقت زمام المبادأة بيدها حتى سماها المؤرخون بـ (الحرب بالرسل).

٣ – مهاجمة بؤر الردة المتحركة :

ثالثاً: مهاجمة بؤر الردة المتحركة: كونت بعض القبائل تجمعًّا قبليًّا وجربوا الغارة على المدينة من اتجاهين غير أنهم وجدوا الخليفة قد سد أنقاب المدينة بالمقاتلة، ثم تبعهم فهزمهم وحرق بعض قياداتهم بالنار. [٦٦]

لقد حققت هذه الخطوة أهدافها. وأبرزها:

- تعزيز ثقة المسلمين بالخلافة.
- إرهاب المرتدين وإعطائهم فكرة حية عن جدية الخلافة في توجهها .
- منع تجميع القبائل المرتدة والحيلولة دون تكاتفها.
- كما أنها عززت صلة المدينة إداريا ببعض الأطراف.
- وأمنت جباية بعض الصدقات، وتعزيز اقتصاد الخلافة.

٤ – الهجوم الشامل على المرتدين :

رابعاً: الهجوم الشامل على المرتدين : بدأت هذه الخطوة بعد عودة جيش أسامة ، وما ترتب على ذلك من تحسن القدرة الاقتصادية للخلافة حيث عقد الخليفة أحد عشر لواءً .

---

(٦٥)أشار الدكتور علي محمد الصلابي في كتابه (أبو بكر الصديق ص٢٢٣-٢٢٤) إلى دراسة عميقة قام بها الدكتور مهدي رزق الله أحمد في كتابه (الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة) أثبت من خلالها أن الردة (لم تكن شاملة لكل الناس كشمولها الجغرافي، بل إن هناك قادة وقبائل وجماعات وأفراداً تمسكوا بدينهم في كل منطقة من المناطق التي ظهرت فيها الردة... وأن الدولة الإسلامية اعتمدت على قاعدة صلبة من الجماعات والقبائل والأفراد الذين ثبتوا على الإسلام، وانبثوا في جميع أنحاء الجزيرة، وكانوا سنداً قوياً للإسلام ودولته في قمع حركة المرتدين منهم).

(٦٦)هو الفجاءة بن إياس لغدره ونكثه العهد إذ جاء يطلب سلاحاً ليحارب به المرتدين فأخذ السلاح وحارب به المسلمين الآمنين وعاث في الطريق ينهب ويسلب ويهدر الدماء !/ انظر عبقرية الصديق للعقاد .

أعطى الخليفة إلى كل قائد عهده وحملهم كتاباً واحداً إلى العرب كافة حدد في الأول واجبات كل أمير وحدد في الثاني فهم الخلافة لإسلام المسلم وما يترتب عليه من التزامات وموقفها من المرتد .

وتكشف وثائق المصالحات التي عقدت مع بعض القبائل عن سياسة الخلافة من المرتد الذي يقاتل ويهزم وهي:

- القتل على الرجال والسبي على النساء والذراري.

- الإجلاء عن الأرض.

المصالحة لمن لا يقاتل بشرط:

- نزع الحلقة (السلاح) والكراع منهم.

- اعتبار ما أصابه المسلمون من أموالهم غنائم. وحدد هذه الأموال في (الصفراء والبيضاء) أي الذهب والفضة.

- تعويض المسلمين عما أخذه منهم المرتدون .

- دفع المرتدين دية شهداء المسلمين.

هـ. إقرار المرتدين أن قتلاهم في النار.

- تحقيق كامل الأهداف .

حققت سياسة الخليفة كامل أهدافه فقد تم له:

القضاء على الردة .

وتثبيت سياسة النبي ^ .

وتعزيز الوحدة التي حققها في حدود الجزيرة العربية .

واستكمال التنظيم الإداري والعسكري والاقتصادي والاجتماعي لدولة يقودها الصحابة ويرأسها الخليفة.

وتحقيق نقلة تاريخية في بناء القوة العسكرية القادرة على الضرب بعيدًا – ليس عن مركز الدولة وإنما – عن حدودها أيضاً. لذلك تجده يقف في المسجد مخاطباً الناس بقوله:

(فالعرب اليوم بنو أُم وأب وقد رأيت أن استنفر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام) ثم أردف: (واعلموا أن رسول الله ^ كان عوَّل أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه، واختار ما لديه. ألا وإني عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم ومالهم فرسول الله ^ أنبأني بذلك قبل موته).

الثورية والاتباع في سياسة الصديق :

لقد أتاح قدم الإسلام للخليفة أبي بكر مواكبة نزول القرآن أكثر من غيره مما أعطاه فرصة تكوين مبدئية شاملة استوعبت الأسس العقائدية اللازمة وتعزيزها سلوكياً من خلال المواقف العملية المعبرة وبالتالي امتلاك تاريخية أطول لتلك المبدئية.

إن طبيعته الهادئة الوديعة – أو كما وصـــفه المؤرخون (كان مألوفًا لقومه) شـــكلت عاملا إيجابيًّا لصـــالح الاســـتيعاب العقائدي والتعبير الســلوكي العميق عنه وبالتالي تكوين تلك الشـخصـية الثورية المتزنة القادرة على اتخاذ القرار الصـــائب والبقاء دائماً في الجانب الصـــحيح كما تقتضـــيه العقيدة وتستوجبه الصحبة الطويلة.

وقد كانت هذه الصـفات تختفي خلف هدوء القناعة يقيناً بالعقيدة والطاعة للرسـول ^ في حياته. أما وقد توفي الرسول ^ وانتقل أبو بكر إلى الموقع الأول، فقد فاجأ المسلمين والصحابة منهم بشكل خاص بجوانب شخصيته ! فعندما صعب على المسلمين التسليم بوفاته وارتبكوا وذهبوا كل مذهب جاء أبو بكر من منزله بالسـنح، ودخل على رسـول الله^ فكشـف عن وجهه فقال: (بأبي أنت وأمي أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصـــيبك بعد موتة أبداً) ثم رد الثوب على وجهه وخرج إلى الناس وهو يسمع ما يقولون فوقف خطيباً يؤكد حقيقة وفاة الرسول ^ .

وعندما أرجف الناس واشـرأبّ النفاق ، واتسـع نطاق الردة واضـطرب الصـحابة واقترحوا عليه الإبقاء على جيش أسامة بن زيد كشف عن عميق وعيه وبعد رؤيته بالإصرار على إنفاذ جيش أسامة وتأكيد استمرار سياسة الرسول^ أولاً. وهي مسألة مهمة جدًا لضمان وحدة الفكر والاجتهاد .

غير أنه أدرك أيضـاً الاحتمالات العملية التي يمكن أن تترتب على الإبقاء على الجيش أولها الإيحاء بانكفاء المسلمين في المدينة وترك الجزيرة مسرحاً للمرتدين يصولون ويجولون فيها.

كما أنه أدرك أن الإبقاء على جيش أســـامة تعلق بأســـباب القوة التقليدية بينما المفروض في روح الثورة أن تخلق قوتها باســـتمرار من خلال تثوير العوامل في الظرفين المكاني والزماني والتعبير عن الذات.

فهو إذن ينشـــد في المشـــورة ثورية الرؤية وليس الواقعية المجردة؛ لأن ثورية الرؤية تعكس الثقة بالمبادئ والروح الثورية، بينما الواقعية المجردة تعكس التوسل بالدنيا تقليديًا.

كما أن خروج الجيش يعطي الانطباع الأول عن تقدير الخلافة لحركات الردة وأنها حركات هامشية لا تخيف المبادئ ولا الدولة فتهز قناعات المرتدين بدل أن تهز الردة قناعات الصحابة والمسلمين.

فلما خرج الجيش خرج هو بمن بقي لملاقاة المرتدين. وهو قرار صـائب مكمل لقراره السـابق؛ لأنه أتاح ثوريًّا تكوين قوة جديدة للعقيدة تتعامل مع المرتدين، وبذلك حقق هدفين:

١– تجديد القوة العسكرية للدولة والعقيدة.

٢ – إظهار جانب قوة آخر للدولة ومسـرحاً جديداً لفعله يشـد الخصـوم ويمنع التقاءهم ويبقيهم على بعثرتهم.

غير أن المهم في الموقف أن خروج أبا بكر لحرب المرتدين جاء بعد أن أعطى للصـــحابة مفهومه للإيمـان والطـاعـة. فهو إذ لم يفرق بين من كفر أو من امتنع عن دفع الزكـاة، قـد اعتبر كلا نوعي الحركات الارتدادية خارجاً على العقيدة والدولة.

وإن موقف النوع الثاني في الارتداديين يجزئ الموقف العام أولاً، ويتخذ لنفسه موقفاً متميزاً ضـمن الدولة وبنائها السياسي. فإذا قبل الخليفة تحللهم من شرط الزكاة فمعنى هذا أنه أقر لهم موقفاً خاصًا في اتفاق معلن وهو خلل في البناء الاجتماعي والســياســي والاقتصـــادي والثقافي للأمة لأنه يهدد الوحدة ويقود إلى معارضة نهائية مستقبلاً.

لهذا عد الجميع موضـع مجابهة مع الدولة وتمسـك بتسـليم المرتدين بمبادئ وأسـس الإسـلام كافة، إدراكاً لقيمة تضافر تلك المبادئ والأسس في إرساء أسس الأمة الجديدة، وانتصار العقيدة الجديدة.

فالذين أرادوا الإيمان بالله ورسـوله وأقاموا الصـلاة وحجبوا الزكاة يريدون دنيا بدون دين، فمثلهم مثل الذين أرادوا الاسـتقلال عن الدولة فاختاروا الدين بدون دولة. وهو إخلال بالترابط بين التوحيد والوحدة.

لهذا قيل في أبي بكر: إنه أفضل الناس بشيء كان في قلبه وليس لأنه كان أكثرهم صلاةً وصياماً) ا. هـ. بشيء من التصرف.

بهذه السـياسـة الحكيمة والقيادة الحازمة تمكن الصـديق ﵁ من القضـاء على الفتن الداخلية بجميع شعبها وأشكالها. وذلك أول عمل ينبغي أن يقوم به أي حاكم، وأول شرط لإستقرار أي حكومة، ودوام أي نظام وإلا ضـعفت الحكومة في نهاية المطاف وانهار النظام، فضـلاً عن الانشـغال عن المهام الأساسية الأخرى في الداخل أو الخارج.

بين الصديق وعثمان وعلي :

وهو ما حدث لسيدنا عثمان ﵁ في النصف الثاني من خلافته، وسيدنا علي ﵁ يوم آلت إليه الخلافة. فكانت فترة عصفت فيها الفتن بالأمة عصفًا فانقسمت على نفسها وخاضت حروباً أهلية لا طائل من ورائها، ولم تحقق أي هدف من أهدافها. بل ابتعدت كثيراً عنها. وكلما مر زمن زادت الأمور تعقيداً واضطراباً!

وبغض النظر عن الأسـباب والأعذار فإن عليًّا لم يسـتطع معالجة التركة التي ورثها وتدارك الأمر أو القضـاء على الفتنة، ولم يتمكن من السـير على سـياسـة تعود بالأمة إلى سـابق جماعتها ووحدتها لينطلق بها مرة أخرى إلى حيث يريد لها أن تنشر رسالتها.

بل تفاقمت الأمور وكثرت الفتن والاضطرابات وقوي الخصوم حتى تمكنوا من قتله! وغادر موقعه في القيادة شهيداً والأمة مضطربة منقسمة لم تتوحد إلا .. بعد حين! في زمن معاوية ﵁ .

خليفة القائد الأعظم :

إن عبقرية الصديق وكفاءته القيادية، وقدرته على حشد الناس، وأثره الفاعل في انقيادهم له والتفافهم حول شخصه، وهيبتهم وإجلالهم لشخصيته، وحبهم وانجذابهم لها، لا يمكن الإحاطة به أو تصوره كما ينبغي وتقديره حق قدره ما لم نسـتحضـر أمراً في غاية الأهمية ألا وهو: أن الصـديق جاء إلى منصـة الحكم والقيادة بعد أعظم قائد وأكبر شـخصـية آسـرة حكمت الأرض، ألا وهو النبي محمد ٨ المؤيد من السماء !

إن من الطبيعي أن تقع المقارنة بين اللاحق والسـابق في أي موقع من مواقع الحياة ووظائفها. وإذا كان السـابق قد أوتي نصـيباً من التميز وعناصـر الجذب والاسـتيعاب، فإن اللاحق مهما أوتي من مؤهلات ما لم تكن مقاربة لمن سـبقه فإن الحظ سـيكون إلى غير جانبه؛ ما يؤدي إلى ضـعف التفاف الجمهور حوله، لشـعورهم بالفجوة الفاصـلة بينهما ! ومهما أجهد الثاني نفسـه ليبدو مقبولاً وجذاباً فلن يفلح إلا أن تكون الفجوة ضيقة أو معدومة.

فما بالك بشخص جاء بعد النبي محمد ٨ !! فقاد الناس قيادة وساسهم سياسة حتى كأن شيئاً لم يتغير! بل كثر الخير وانتشر، واستقرت الأمور، وتوسعت الدولة وثبتت أركانها، واستطاع أن يدير الناس في فلكه ويجذبهم إلى مركزه فصاروا يطوفون به كما تطوف الكواكب بالنجم الكبير !

شبيه إبراهيم وعيسى عليهما السلام :

لا شك أن الله تعالى حين اختار الإسلام خاتماً للأديان يريد له أن يبقى، ويريد له أن يقوى ويستغلظ ويستوي على سوقه، ويكره أن يضعف أو ينتهي ويزول بوفاة الرسول ^ .

إن هذا يستلزم أن يولي أمر دينه من بعد نبيه خيرة صحبه؛ فإن هذا هو الذي يحقق مراد الرب جل وعلا على أتم وجه وأحسن حال. فكان أبو بكر ﷺ هو المختار بعد المختار ^ .

لقد كان النبي ^ يعلم – والأمة تعلم – أن أبا بكر ﷺ كذلك، ويشبهه بإبراهيم خليل الله، وعيسى روح الله. وهما من أولي العزم.

وإبراهيم أفضل الأنبياء عليهم السلام بعد النبي محمد ^ . وللنبي شبه كبير به خَلقا وخُلقا. وعيسى لا يبعد عنه في المنزلة كثيراً. وهذا يعني أن الفجوة بين شبيه إبراهيم وعيسى وبين النبي ليست واسعة، بل ضيقة جداً.

بينما شبّه رسول الله ^ عليًّا ﷺ بهارون ﷺ ، وجعل منزلته منه كمنزلة هارون من موسى. والفجوة بين المنزلتين واسعة!

ولو مات موسى فخلفه هارون لما استطاع أن يجمع حوله بني إسرائيل، ويشدهم في فلكه. ولقد حدث له ذلك حين ذهب موسى لمناجاة ربه وقال: ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٢]. فلم يستطع هارون أن يقود قومه وينقذهم من فتنة الارتداد وعبادة العجل﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٥٠]. وقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه:٩٤] . ولما قال لقومه: ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِي قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ [طه:٩٠،٩١]

بين أبي بكر الصديق ويوشع بن نون :

والشيء نفسه قاله المرتدون لأبي بكر:

أطعنا رسولَ اللهِ ما دام بيننا   **فيا لَعبادِ اللهِ ما لأبي بكرِ**

ولكن أبا بكر – يا لعباد الله – كان له معهم شأن آخر !

ولما مات موسى ﷺ كان الذي خلفه في قومه وقادهم قيادة قوية محكمة هو (صاحبه) الذي كان دوماً في رفقته وصحبته، فتاهُ الذي جاء ذكره في سورة (الكهف) في قصته مع الخضر ﷺ . لقد استطاع أن يقود بني إسرائيل ويقاتل بهم عدوهم حتى عبر بهم نهر الأردن. والشيء نفسه حدث لأبي بكر !

يقول الأستاذ محمود الملاح[٦٧] رحمه الله :

---

(٦٧)الأستاذ محمود الملاح رحمه الله تعالى كان أعرف الناس بالرافضة، وأشدهم عليهم، وأكثر من اهتم بهم وقاومهم في منتصف القرن الماضي وناقش موضوعهم مناقشة صريحة دون لف ودوران. له مؤلفات عديدة في هذا المجال منها: الرزية في القصيدة الأزرية، تاريخنا القومي، تشريح شرح نهج البلاغة وغيرها. ولا أدري ما السبب وراء نسيانه من قبل أصحابنا هذا النسيان المطبق رغم أهمية ما تركه من تراث عثرنا على بعضه مصادفة؟!. إن هذا الرجل مدرسة فكرية كبيرة تحتاج منا إلى بعث واهتمام يناسبها ويليق بما قدمه صاحبها من جهود عظيمة لم يشكر عليها إلى حد هذا اليوم.

(ولننقل ما ورد في الإصحاح الأول من سفر يوشع ليقف القارئ على أن سيرة يوشع كانت (مفصلة) على أبي بكر كأنها حلة أعدت له منذ ألفي عام هكذا: (وكان بعد موت موسى عبد الرب، أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً: موسى عبدي قد مات فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم .. كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى .. لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك. كما كنت مع موسى أكون معك.

تشدد وتشجع جدًّا! للعمل حسب كل الشريعة التي أمرك بها موسى عبدي لا تمل عنها يميناً ولا شمالاً.

تشدد وتشجع. لا ترهب ولا ترتعب لأن الرب إلهك معك).

فانظر إلى هذه، أما تراها منطبقة المفاهيم على أبي بكر (يوشع نبي المسلمين) كأنها نزلت عليه (إلا أنه لا نبي من بعدي) !

قلت : كأن هذه الكلمات نزلت من السماء على أبي بكر يوم وفاة النبي ^ ووقوع الارتداد: (لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك كما كنت مع (محمد) أكون معك).

وقالوا له: لا تنفذ جيش أسامة، فأصر على إنفاذه حفاظًا على متابعة النبي ^ أن يحل عقدة عقدها رسول الله ^ بيده! فكأن السماء يومها كانت تناديه: (تشدد وتشجع جدًّا للعمل حسب كل الشريعة التي أمرك بها (محمد) عبدي، لا تمل عنها يميناً ولا شمالاً. تشدد وتشجع. لا ترهب ولا ترتعب لأن الرب إلهك معك) [٦٨]!

يقول الأستاذ الملاح: (فارجع البصر هل ترى من فطور) في سيرة أبي بكر وسياسته بالنسبة إلى سيرة النبي وسياسته ؟ (ثم ارجع البصر كرتين) في قوله: (لا يقف إنسان في وجهك ! كما كنت مع موسى أكون معك ! تشدد وتشجع للعمل حسب كل الشريعة ، لا تمل عنها يميناً ولا شمالاً (لا ترهب ولا ترتعب).

ومن الغرائب أن آخر غزوات النبي ^كانت غزوة تبوك دون الأردن وإنما الذي عبر الأردن جيش أبي بكر !!

وكان النبي عقد لواء لأسامة فأنفذه أبو بكر وقال: لا أحل راية عقدها رسول الله. [٦٩]

ولو خرج النبي ^ بعد وفاته بأربعين يوماً كيف سيجد أمته التي تركها ؟ سيجدها متماسكة قوية تضرب بيد من حديد رأس كل خارج عنيد. قد أحكمت أمرها واستقام رشدها والتفت حول إمامها. ورجع جيش أسامة بالغلب والخير والظفر. فهل هناك أروع وأبهى، وأشد وأقوى !!

لا بد أنه سيودعهم بالابتسامة نفسها التي ودعهم بها آخر مرة وهم يصلون جميعاً خلف إمامهم، ثم يرخي الستر ما بينه وبينهم من جديد! ويحلق راضياً مطمئناً إلى الملأ الأعلى والسماوات العلى.

لقد شبت الأمة عن الطوق فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

أما علي رضي الله عنه فكان من النبي ^ كـــ(هارون من موسى) في منزلته. وكذلك في شخصيته التي تعاني من عدم انقياد الناس لها واجتماعهم حولها. وقد حدث له ذلك مرارًا في حياة النبي ^ كما كان يوم تركه على المدينة وتوجه إلى تبوك فكان سبب قوله له وقد تبعه يبكي وهو يشكو إليه انفضاض الناس عنه ولمزهم إياه: (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي). وهو مواساة وتطييب خاطر. أي أن لك أسوة بهارون حيث تركه موسى فعصاه قومه واستضعفوه وكادوا يقتلونه فاصبر واحتسب !

---

(٦٨)تأمل العلاقة بينها وبين قوله تعالى على لسان نبيه^ لأبي بكر: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ .
(٦٩)الرزية في القصيدة الأزرية ص٤١-٤٢ ، الأستاذ محمود الملاح.

إن القدرة على القيادة وحشد الاتباع ليس شرطاً أن تتناسب طرديًّا مع التقوى، فقد يكون الرجل تقيًّا ولا يكون قائداً من الطراز الأول كهارون عليه السلام وهو نبي!.

وليس كل الأتقياء يصـــلحون كقادة أكفاء. وقد تجتمع في أحدهم نســـبة معينة من مؤهلات القيادة تقترب أو تبتعد من القمة والناس مراتب ، وليس ذلك بضائرهم عند الله .

ولما ذهب علي رضي الله عنه إلى اليمن اختلف الناس عليه وخاصموه إلى رسول الله ^ فاضطر أن ينزل في الهجير عند غدير يقال له : خم ليدافع عنه ويبرئ ساحته.

وحدث لما آلت إليه الخلافة أن تفرق عنه الناس ولم يستطع جمعهم واستيعابهم ووقع له ما خشي منه هارون عليه السلام أن يقع من الفرقة في قومه فلم يأمرهم إلا بما كان يقدر عليه وانتظر حتى رجع موسى عليه السلام القائد الموهوب.

وقد أدرك علي ذلك تمام الإدراك وأشار إليه – بأبي هو وأمي - بقوله: (أنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً) [٧٠] لما أكرهوه على البيعة ولكن لم يسـمعها منه أحد وضـاعت وسـط الضـجيج فتقدم لتحمل المسؤولية بشجاعة وصبر وثبات، لكن الأحداث كانت عاصفة شديدة العصف ولم يكن في وسعه إخمادها، فقضى والفتنة لما ينطفئ أوارها.

ترى ! لو خرج رسول الله ^ بعد وفاة عثمان وتولى علي بأربعين يوماً ماذا كان سيجد ؟ وما عساه أن يقول!

إنه سيجد أمة متفرقة تموج في الفتن. وإمامهم يرقب الأوضاع وهو يتحسر كهارون يأمر أتباعه فلا يطيعون وينهى قومه فيعصـون وهو يقول: (تقول قريش: ابن أبي طالب رجل شـجاع ولكن لا رأي له ألا لا رأي لمن لا يطاع لا رأي لمن لا يطاع لا رأي لمن لا يطاع). [٧١]

لقد انتظر هارون حتى رجع موسى فحسم الأمر. ولحق علي بعد حجة الوداع رسول الله ^ فأدركه عند ذلك الغدير فكان ما كان وقضي الأمر. وتبعه وهو متوجه إلى تبوك فواساه وطيب خاطره ! ولكن ينتظر من في ذلك الظرف وهو أمير المؤمنين وخليفة المسلمين؟!

وصدق رسول الله ^ وهو يقول له: (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟).

وشتان شتان بين المنزلتين ! لقد كان الفراغ واسعاً بين منزلة هارون ومنزلة موسى فملأه يوشع بن نون كما ملأ الفراغ بين محمد ^ وعلي أبو بكر الذي شبهه رسول الله بإبراهيم وعيسى، وعمر الذي شبهه بنوح وموسى !

ولا شك أن إبراهيم وعيسى - وكذلك نوحاً وموسى - أعظم منزلة من هارون.

وأذكِّر هنا أن يوشع الذي خلف موسى عليه السلام صار من بعده نبيًّا يوحى إليه؛ فلولا أن الوحي قد انقطع بموت رسول الله ^ ، وأن محمداً قد ختمت به النبوة، لكان أولى الناس بالنبوة بعد رسول الله ^ هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه .

٢- التصدي للأخطار الخارجية والجهاد في سبيل نشر الرسالة:

وهو من أدل الدلائل على عبقرية الصـديق السـياسـية وكفاءته المتميزة في التخطيط والقيادة العسكرية.

---

(٧٠)نهج البلاغة ١٨٢/١.
(٧١)نهج البلاغة.

لقد استثمر الحالة الجديدة التي صارت عليها الأمة بعد القضاء على فتنة المرتدين وما اكتسبته من خبرة في القتال وثقة بالنفس وتوحد في الصف للقيام بأعظم عمل إيجابي ألا وهو الجهاد في سبيل الله لنشر مبادئ الإسلام. وأول ثمرة من ثمار هذا العمل إشغال الناس عن الفتن وما يمكن أن يتولد عن الحروب الداخلية التي خاضوها قريباً من التفكير بالثأر والعمل للانتقام وزعزعة الصف . فنادى فيهم نداءه وعبأهم لمقاتلة أعظم دولتين في زمانه فارس والروم فعصف بهما عواصفه، وما قضى إلا وقد وجه لكل منهما الضربة الموجعة المميتة، إذ حررت جيوشه غربي العراق وتمركزت في (الحيرة) تتخذ منها قاعدة بانتظار فرصة القفز إلى (المدائن) عاصمة الفرس المغتصبين.

أما الروم فقد انتزع منهم الشام، ولما جاءته المنية كانت جموع المجاهدين تتعبأ في ساحة اليرموك لتخوض أعظم معركة فاصلة في تاريخ الجبهة الغربية الملتهبة بقيادة ألمع وأعظم القادة العسكريين الميدانيين في التاريخ سيف الله المسلول خالد بن الوليد ﷺ الذي كان الصديق وراء اختياره.

كل ذلك تم في غضون سنتين اثنتين فقط هي فترة حكمه المباركة والحافلة بالأحداث الجسام! أليس هذا من العجب العجاب؟!

أعظم خطة عسكرية في التاريخ :

حينما نقول: إن أبا بكر الصديق ﷺ من طراز القادة التاريخيين العظام، لا نقول ذلك بدافع الحب والإعجاب المجرد.

لقد كان الصديق مع النبي ^ يخطط ويقود ويوجه وهو يشاركه الرأي والمشورة. لكن شخصية النبي ^ كان تغطي عليه وتحجب بروز مواهبه ظاهرة للقريب والبعيد. لكن رسول الله ^ كان يعرف من هو أبو بكر فكان يقدمه على الأصحاب. حتى إذا غادرت الشمس سماء الإسلام برز البدر ينير الوجود ويسحب ذيل نوره على الكواكب والنجوم.

إن أبا بكر هو واضع الخطة العسكرية التي أبادت الفرس وحطمت دولتهم فأزالتها - وإلى الأبد - من الوجود!

إن خطة عسكرية حققت ما عجز عنه الرومان والبابليون، وهزمت قوماً كانوا قد محوا خلال تاريخهم – إضافة إلى بغداد -خمس دول وحضارات قامت في العراق هي سومر وآكد وآشور والحضر وبابل ! وكانت وقعاتهم وسطواتهم بالروم يشهدها العالم إلى زمن مبعث الرسول ^ ومنها انتصارهم الذي سجله القرآن بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم:١،٢] حتى لقد وصل الفرس إلى عاصمة الرومان الشرقية -القسطنطينية- لهي حقًّا أعظم خطة عسكرية في التاريخ.

لقد أيس البابليون وعجز الروم في دهورهم المتطاولةعن إسقاط دولة فارس، ولم يفلح أي قائد عسكري لامع طيلة تاريخهم في أن يضع خطة يجتث بها دولتهم ويسقطها إلى الأبد. وعجز العرب كذلك ! حتى إذا استيأسوا وهم يحاولون ويأملون ويظنون بأنفسهم الظنون جاءهم أبو بكر ليضع تلك الخطة العسكرية التاريخية الأسطورية ويرسمها وهو جالس مع أركان حربه فوق رمال الجزيرة . وهذه هي الملامح الأساسية للصورة الرائعة لتلك الخطة:

الملامح الأساسية للخطة :

قسم أبو بكر الخطة إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى:

عبارة عن معارك استنزاف سريعة متلاحقة تنهك الخصم الفارسي وتشتت قواه وتستنفدها وتفقده الثقة بنفسه وتعيد الثقة وتزرعها في نفوس العرب حتى إذا تم استنزاف الخصم أجهز عليه بمعركة نهائية كبيرة فاصلة أعد لها طويلاً.

تنتهي المرحلة الأولى بتحرير غربي العراق والاستيلاء على (الحيرة) التي هي أنسب موقع لمن يريد تهديد العاصمة من العرب: إن وجهها إلى سواد العراق وظهرها إلى صحراء العرب فيمكن التوغل منها بحذر إلى الداخل أو الانسحاب منها إلى الصحراء لإعداد العدة واستئناف الهجوم مرة أخرى.

المرحلة الثانية:

وهي عبارة عن معركة كبيرة فاصلة ، يخوضونها بعد أن يكون الفرس قد أنهكت قواهم وفقدوا الثقة بأنفسهم في الوقت الذي يكون العرب قد استعادوا هذه الثقة وجمعوا قواهم وحشدوها لكسب المعركة التي سيتم بعدها الانقضاض على عاصمة الفرس – المدائن - لإسقاطها وإحكام السيطرة عليها.

أوكل تنفيذ المرحلة الأولى إلى سيف الله خالد بن الوليد وعياض بن غنم على أن يدخل الأول العراق من جنوبه والثاني من أعلاه لمشاغلة العدو وشل تفكيره وتشتيت قواه فأيهما وصل الحيرة – وهي الهدف الأول لهما – قبل صاحبه كان هو الأمير أو القائد العام. فأتم المهمة كلها خالد بن الوليد(٧٢)وخاض في سبيل تحقيق هذا الهدف الكبير - وفي غضون سنة واحدة! - بضع عشرة معركة كبيرة خاطفة استطاع العرب بها أن يحققوا أهدافهم ضمن تلك المرحلة كاملة، وصاروا يتأهبون لخوض المعركة الفاصلة وهم في أعلى المعنويات وحالات الاستعداد.

بعد احتلال الحيرة صدر الأمر من العاصمة لسيف الله خالد بالتوجه إلى الشام، وعاجلت المنية أبا بكر فأكمل تنفيذ الخطة الفاروق عمر، فكانت معركة (القادسية) التي تم من بعدها إسقاط المدائن وإخماد أسطورة النار الخالدة.

فلو لم يكن للصديق إلا هذا الإنجاز في عالم العسكرية الذي عز على متناول عمالقة الرومان والبابليين وسادات العرب لكفاه فخراً بين عظماء التاريخ ودليلاً على عبقريته العسكرية وكفاءته القيادية!

بين قيادة أبي بكر وبطولة علي :

لقد عرفت العسكرية عليًّا مقاتلاً ميدانياً من الطراز الأول، وجنديًّا باسلاً ومحارباً فاتكاً يجيد فن القتال ومبارزة الأقران! أعطاه النبي ^ الراية مراراً وهي لا تعطى إلا للأبطال كمصعب بن عمير وأمثاله.

ومن الملاحظ في دراسة جهاد علي مع النبي ^ أنه لم ينفرد في قيادة جيش طيلة العهد النبوي كما انفرد غيره كأبي عبيدة وعمرو بن العاص وخالد وحمزة وأسامة وجعفر!

إلا في خيبر. وحقيقتها أن النبي ^ أوكل إليه قيادة كتيبة اقتحامية أشبه ما تكون بالكتائب الميدانية الاستشهادية . وهو الأسلوب الأنجح مع اليهود لجبنهم وحرصهم على الحياة وخوفهم من المواجهة والالتحام بالسلاح الأبيض. وخير من يستطيع القيام بهذه المهمة من هو مثل علي في بسالته وشجاعته وتمكنه من فن القتال في الميدان.

أما القائد العام والمخطط الذي يشرف على سير المعركة فقد كان النبي ^ ومعه الصديق (ثاني اثنين) وبقية أركان حربه.

حتى إذا انتقل النبي القائد إلى الرفيق الأعلى لم نجد عليًّا ﵁ يستلم قيادة جيش أو معركة طيلة ربع قرن. حتى إذا استلم الخلافة وقد كثرت الحروب الأهلية خاض معارك عديدة تولى قيادتها، لم تكن من جنس المعارك التي يتجلى فيها الفكر الاستراتيجي العسكري والعبقرية القيادية التخطيطية أو التنفيذية كما هو الشأن في معركة القادسية واليرموك ونهاوند .

---

(٧٢)لأن عياضاً حصره الروم والفرس في دومة الجندل حتى خلصه خالد.

إنما كانت معارك برزت فيها المقدرات الفردية والمبارزات الميدانية للجندي الباســل، وذلك ما يجيده عليﷺ. لقد كثر القتل فيها وكان القتلى يعدون بعشرات الآلاف ثمنًا لمعارك لم تكن حاسمة قط، ولم يتغير بها وجه التاريخ أو وجهة الأحداث، ولم يصــل فيها علي ﷺ إلى هدفه وكانت ســجالاً بينه وبين خصــومه الذين بدا أن الزمن ومجرى الأحداث يسير إلى صالحهم إلى يوم استشهاده ﷺ .

إن ما فقدته الأمة من شــهداء في ســاحات الوغى وهي تحرر العراق والشــام وأفريقيا، وتفتح فارس وبلاد ما وراء النهر، وتطهر البحر الأبيض والأحمر، وتغير وجه التاريخ أيام الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوَل - لا أظنه يساوي ما فقدته الأمة من رجال في تلك الحروب التي خاضها الخليفة الرابع، دون أن يصل من ورائها إلى أي هدف من أهدافه!

٣- جمع القرآن وحفظ الدستور :

إن هذا العمل العظيم والإنجاز الكبير هو أعظم ما شرف الله تعالى به الصديق من أعمال وحققه من إنجاز!

إن الأمة هي أمة القرآن ، فلا أمة بلا قرآن إذ لا أمة بلا هوية. وهوية هذه الأمة هو القرآن العظيم. بل هو أصل وجودها وبقائها !

ويفوز أبو بكر بهذا الشــرف ! ويكون هو صـــاحب وســـام قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة:١٧].

انقسمت هذه الآية فكان الحفظ والقراءة من نصيب النبي ^ وكان الجمع من نصيب (صاحبه) ﷺ !

إن جمع القرآن متسلسلاً بين دفتي كتاب كان مستحيلا على الجهد البشري زمن النبي، وليس ممكناً في نفسه لعدم اكتماله أولاً، ولنزوله مفرقًا لا متسلسلاً ثانياً.

إن تأليف أي كتاب لا بد أن يكون مرتباً متسلسلا موضوعاً موضوعاً حتى إذا اكتمل أمكن رزمه ضمن جلد واحد.

أما القرآن فقد نزل مفرقاً حسب الحوادث وليس مسلسلاً حسب المواضيع أو السور. فلم تنزل مثلاً - سورة الفاتحة أولاً ثم أول صفحة من سورة البقرة ثم الثانية وهكذا إلى آخر الكتاب. وليس ممكناً لأي كتاب أن يجمع مرتباً ما لم يكتمل متسلسلاً.

وما إن اكتمل القرآن حتى مات رســول الله ^ وهو مفرق عند كتبة الوحي فتولى العمل من بعده أبو بكر الصديق (ثاني اثنين).

وتجلت في الصديق إرادة الله في جمع القرآن:﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة:١٧]، وحفظه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]. إن هذه الإرادة الربانية الكريمة لا يجعل الله تعالى محلاً لتجليها إلا الذين يختارهم من مقربيها.

إن هذا العمل هو أعظم وأكرم عمل يقوم به إنســـان غير نبي؛ لأن القرآن هو الصــــلة الوحيدة المضمونة السلامة بين الرب وخلقه فلا يأتمن الله على حفظها إلا الخيرة من عباده. وإلا وقع الشك فيها وفي سلامتها من الزيادة والنقصان. وذلك مرض لا يسلم منه طاعن في الصديق، إلا ما شاء الله وهو لازم له.

وتجلت في الصديق أول آية في القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ؛ لأن نعمة حفظ القرآن من أعظم النعم التي يحمد الله عليها ويشكر. وأبو بكر كان في هذا الحفظ السبب الأكبر. ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾[الكهف:١]. فالله يحمد على إنزال الكتاب وعلى حفظه من التحريف.

وتجلى فيه أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢]. ولا يكون الكتاب هادياً إلا بعد الاطمئنان إلى كماله وحفظه ونفي الريب عنه. وأبو بكر هو الرجل الذي كتب الله ذلك على يده. وذلك يستلزم نفي الريب عن أبي بكر أولاً وإلا تطرق الريب إلى الكتاب لأن فاقد الشيء لا يعطيه. إذ كيف لصاحب العيب أن ينفي عن غيره الريب!

وأبو بكر هو (الأتقى). ومن أولى من الأتقى بتولي حفظ كتاب المولى؟! يقول علي ﷺ : (رحم الله أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين).

وهكذا جمع أبو بكر الأمة بعد أن تفرقت أو كادت.

وجمع دستور الأمة بعد أن كان مفرقاً.

ولا أمة بلا دستور، ولا دستور بلا أمة.

وفي الوقت نفسه استطاع أن ينقل عوامل الصراع الداخلية إلى ساحة الخصم ويغزوه في عقر داره.

فمن أولى منه بإمامة الأمة وقيادتها !

أما أمير المؤمنين عثمان ﷺ فقد شرفه الله تعالى بجمع الأمة على قراءة القرآن بلهجة واحدة طبقاً للمصحف الذي جمعه أبو بكر. لكنه لم يستطع الحفاظ على وحدة الأمة بل استطاع الخصوم من اليهود وزنادقة الفرس ودهاقنتهم وغيرهم أن ينقلوا عوامل الصراع إلى ساحة الأمة الداخلية ويشغلوها بنفسها في صراعات وفتن لم يستطع إخمادها بل أكلته آخراً بنارها وأغرقته بأمواجها فقضى شهيداً وترك الأمة تعاني مما كان إلى اليوم .

٤- حسم معضلة ولاية الأمر :

استطاع الصديق - رغم قصر فترة حكمه - أن ينجز هذه الإنجازات ويحفظ الأمة قوية موحدة في قاعدة فكرها واتجاه حركتها.

ويمرض أبي بكر مرض الموت. فلا بد أن يموت قرير العين بأن يضمن الحفاظ على هذا الإرث مجموعاً قوياً موحداً فمن له من بعده؟

لو نظرنا في تاريخ الأمم والشعوب عموماً وتاريخ الأمة منذ وفاة الرسول ^ خصوصاً لوجدنا أن عدم حسم ولاية العهد قبل وفاة الحاكم الذي مات يؤدي إلى تفرق المجتمع وتشرذمه حول الطامحين إلى سدة الحكم بحق أو باطل. ومن ثَمَّ يحدث القتال بين الفئات المتناحرة، ما يقود إلى الضعف والتمزق. وقد يتسبب في إزالة الدولة ونشوء غيرها.

إن عدم حسم هذه القضية بعد مقتل عثمان جر الأمة إلى الفتنة والتطاحن خمس سنين حتى طمع فيها أعداؤها. والشيء نفسه كان يمكن أن يتكرر بعد مقتل علي لولا أن تدارك الله الأمة بالحسن.

وتجددت الفتن حول ولاية الأمر بعد معاوية إذ خرج الحسين في العراق. وأعلن عبد الله بن الزبير العصيان في مكة. وظل الانقسام واستمر جريان نهر الدماء إلى أن جاء عبد الملك بن مروان فوحد الأمة. لكنها ظلت تعاني من كثرة الخارجين الطامحين إلى تسنم سدة الحكم.. إلى أن انقسمت ثلاثة أقسام: المشرق بيد العباسيين والمغرب بيد العلويين، والأندلس بيد الأمويين.

وهل يمكن أن ينسى التاريخ الفتنة التي وقعت بعد موت الرشيد بين ولديه الأمين والمأمون؟ وما خبر انقسام دولة الأيوبيين على أيدي أبناء صلاح الدين واضمحلالها منا ببعيد.

إذن أخطر شيء على وحدة الدولة عدم الاتفاق على من يخلف الحاكم السابق، فإن لم يحسم الأمر على أيدي الرجال الأقوياء الحكماء صار بأس الأمة بينها وأكلت بعضها بعضاً.

مشاورات الصديق في تولية الفاروق :

لقد حسم الصديق ﵁ أو منع وقوع الفتنتين معاً: الفتنة السابقة لولايته، والفتنة اللاحقة لها. فاختار لولاية الأمر من بعده خير الناس وأعدلهم وأشدهم في ذات الله الفاروق عمر بن الخطاب ﵁ . وذلك بعد تفكير عميق واستشارة ونقاش مع وجوه المهاجرين والأنصار وأهل الحل والعقد منهم.

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد :

(إن الصديق قد جهد في مسألة العهد جهد رأيه، وإنه كان يود أن يكل الأمر إلى المسلمين يختارون من يشاءون، فجمع إليه نخبة من أهل الرأي وقال لهم فيما قال: (قد أطلق الله أيمانكم من بيعتي وحل عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم فإنكم إن أمّرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا من بعدي). فلم يستقم لهم أمر ورجعوا إليه يقولون: (إن الرأي يا خليفة رسول الله رأيك). فاستمهلهم حتى (ينظر لله ولدينه وعباده).

ثم استقر رأيه على استخلاف عمر بعد مشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن حضير (وجماعة من المهاجرين والأنصار فكلهم قال خيرًا). وسأل عليًّا فقال: (إن عمر عند ظنك به ورأيك فيه، إن وليته – مع أنه كان والياً معك – نحظى برأيه ونأخذ منه فامض لما تريد ودع مخاطبة الرجل فإن يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت، وإن يكن ما لا تظن لم ترد إلا الخير) [٧٣].

ودخل عليه طلحة فقال: (ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد نرى غلظته؟) وكان أبو بكر مضطجعاً من شدة المرض فقال: (أقعدوني) فلما أقعدوه قال: (أبالله تخوفني ! أقول: اللهم إني استخلفت على أهلك خير أهلك. أبلغ عني ما قلت من ورائك).

وأجمع على الفاروق جميع من استشارهم الصديق، سوى أنهم ذكروا أن فيه غلظة فأجابهم أبو بكر بالرأي السديد.

سأل عنه عبد الرحمن بن عوف فقال: (ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني). فقال أبو بكر: (وإن).

فقال عبد الرحمن:

(هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة) .

قال أبو بكر:

(ذلك لأنه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو فيه. ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتني إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه. وإذا لنت أراني الشدة عليه). ثم قال: (اكتم هذا).

ثم استدعى عثمان فقال:

---

(٧٣)عبقرية الصديق .

(اللهم علمي به أنّ سريرته خير من علانيته وأنْ ليس منا مثله).

وقال أسيد بن حضير:

(اللهم أعلمه الخير بعدك، يرضى للرضا ويسخط للسخط. الذي يُسر خير من الذي يُعلن. ولن يلي هذا الأمر أقوى عليه منه).

ثم بعد أن استقر الأمر وأجمع الرأي على عمر دعاه فأفضى إليه بوصيته فلما خرج من عنده رفع يديه وقال:

(اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به. واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم. وقد حضرني من أمرك ما حضر فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك. أصلح اللهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته).

يقول رفيق العظم تعليقاً على هذه الوصية:

(وفي كلامه هذا ما يؤيد قولنا السابق أن أبا بكر إنما اختار للخلافة بعده عمر ﵁ ولم يتركها شورى خوفاً من الفتنة وثقة بكفاءته وسدًّا لذرائع النزاع من جهة، ومن جهة ثانية علماً منه بمكانة عمر من السياسة وأنه لا يحيد بالأمة عن سبيل الخشونة والقناعة بالكفاف، ولا يترك لها عنان الخوض في غمرات النعيم الرومي والترف الفارسي فتفسد أخلاقها وتسترخي قواها وتفتر عن بث الدعوة همتها)[٧٤].

وقال أيضا وهو يحلل الأسباب الموضوعية التي تجعل التخوف من وقوع الفتنة أمراً وارداً في الحساب:

(اشتد على أبي بكر المرض فلم يشغله عن أمر المسلمين، ولم يثن همته عن النظر في مصلحة الأمة، وخشي - إن هو مات ولم يعهد لأحد بالخلافة - أن تكون فتنة تضطرب لها الدهماء، وتعظم اللأواء وفي القوم نفر ينتهي إليهم شرف السيادة في الجاهلية والإسلام وهم في الفضل والتقدم سواء، ولكن لكل منهم مكانة في القلوب غير مكانة من عداه، وعصبية تريده على الأمر وإن هو أباه، فإن ترك منصب الخلافة شاغراً وجعله شورى بين القوم خيف من تفرق الرأي، وتعذر تأليف القلوب على واحد من أولئك النفر. إذ الشورى في الأمور وإن كان يراد بها تمحيص الآراء لاختيار الأصلح منها والأصوب فيها، إلا أن صاحب الرأي مجتهد قد يخطئ وقد يصيب، وفي الصحابة – كما قلنا – نفرهم في الفضل والشرف والأهلية كالحلقة المفرغة لا يدرى طرفاها، ولكل واحد منهم عصبية وحزب يريدونه على الخلافة اجتهاداً منهم بوجود الكفاية فيه كما هي في سواه.

إذن فالاختلاف متوقع حتماً بين المسلمين فيما لو ترك أبو بكر منصب الخلافة شاغراً. والمعذرة قائمة للصحابة في هذا الاختلاف ما دام فيهم عدة من ذوي الكفاءة، وأخصهم أهل بيعة الرضوان من السابقين كما أنها قائمة لأبي بكر أيضاً في عدم تركه الأمر شورى والحال ما ذكر درءاً لخطر ذلك الاختلاف المتوقع من بين قوم هو أبصر بهم وأدرى بأخلاقهم.

وإنما نظر أبو بكر فيمن يختار لذلك المنصب الرفيع شأنه الحرج موقعه فرأى أنه يحتاج إلى رجل فيه شدة من غير عنف، ولين من غير ضعف. وممن توفرت فيهم هذه الصفة من الصحابة الكرام عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب. إلا أن الأول كان ربما يريد الأمر فيرى في طريقه عقبة فيدور إليه، والثاني يرى الاستقامة فلا يبالي بالعقبة تقوم بين يديه فهو بهذا إلى الشدة أميَل منه إلى اللين.

---

(٧٤)أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة ١٣٦.

لهذا لما استشار أبو بكر الصحابة فيمن يستخلفه أشاروا عليه بعمر ... ثم دعا عثمان فقال: اكتب: (بســم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر خليفة محمد رســول الله ^ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر. إني اســتعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برّ وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب).

ثم أمر بالكتاب فختمه. ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوماً فبايع الناس ورضــوا به. ثم دعا بعمر خالياً فأوصاه ما أوصاه) (٧٥)

وتأمل قوله: (في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر). أي إني في حال لا يمكن أن يكون في اختياري لمن يخلفني هوى أو ميل شخصي مجرد لأني لن أنتفع منه بشيء إذ أنا ميت وشيكاً.

وصــدق الصــديق ! إذ لو كان اختياره عن هوى وعدم مراعاة مرضـــاة الرب والنصـــح للدين والمسلمين لكان اختار واحداً من أبنائه أو أحد أقربائه.

وأصاب الصديق في هذا الاختيار عين الصواب وكان موفقاً تمام التوفيق. ولم يخلف الفاروق ظنه. لقد وطد أركان الدولة ووســع رقعتها وعصــف بالفرس والروم ونشــر رســالة الإســلام في أصــقاع الأرض، ولم يكن في عهده أدنى تململ لفتنة. بل كانت الأمة في خير حال. لقد (أقام واســتقام حتى ضــرب الدين بجرانه) (٧٦)(لقد قوم الأود وداوى العمد. خلف الفتنة وأقام الســنة ذهب نقي الثوب قليل العيب أصاب خيرها وسبق شرها أدى إلى الله طاعته واتقاه بحقه). (٧٧)

وكان الفاروق وولايته على الأمة حسـنة من حسـنات الصـديق وهو القائل: ليوم وليلة من أبي بكر خير من عمر وآل عمر. ثم ذكر أن اليوم هو يوم وفاة النبي ^ والليلة ليلة الغار.



(٧٥)المصدر نفسه/١٣٣ ، ١٣٤.

(٧٦)نهج البلاغة ١٠٧/٤.

(٧٧)نهج البلاغة ٢٢٢/٢.

مسك الختام

يقول رفيق العظم:

(وأجمع الرواة أن أبا بكر لما قبض ارتجت المدينة ودهش القوم كيوم قبض رسول الله ^ !

وجاء علي بن أبي طالب ؓ باكياً مسـرعاً حتى وقف بالباب وهو يقول: (رحمك الله يا أبا بكر كنت والله أول القوم إسلاماً وأخلقهم إيمانًا وأشدهم يقيناً وأعظمهم غنى وأحفظهم على رسول الله ^ وأحد بهم على الإسلام وأحماهم عن أهله وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلاً وهدياً وسمتاً فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً.

صـدقت رسـول الله حين كذبه الناس وواسـيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا. وسـماك الله في كتابه صديقًا فقال: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ يريد محمداً ويريدك.

كنت والله للإسلام حصناً وللكافرين ناكباً.

لم تضـلل حجتك، ولم تضـعف بصـيرتك ولم تجبن نفسـك كالجبل لا تحركه العواصـف ولا تزيله القواصف.

كنت كما قال رسول الله ^ ضعيفاً في بدنك قوياً في دينك متواضعاً في نفسك عظيماً عند الله. جليلاً في الأرض كبيراً عند المسلمين.

لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى. فالضـــعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له. والقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه. فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك). [٧٨]

وكان علي ؓ إذا ذكر عنده أبو بكر يقول: هو السباق والذي نفسـي بيده ما اسـتبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر.

و(إن أحســـن وصـــف يمثل أبا بكر ؓ بفضـــائله وأخلاقه لا يدع في النفس حاجة إلى المزيد، ما وصفته به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بخطبة وجيزة العبارة عظيمة المعنى جامعة لشمائل أبي بكر وأخلاقه. وإذا أتيت بشـيء من ذكر فضـائله ومناقبه فإنما يكون تفصـيلاً لما أجملت وشـرحًا لما أوجزت.

فقد روي أنه بلغها أن أناساً يتناولون من أبيها فأرسلت إليهم فلما حضروا قالت:

(أبي ما أبِيَهْ لا تعطوه[٧٩]الأيدي، ذاك والله حصـــن منيف وظل مديد. أنجح إذ أكديتم[٨٠]، وسـبق إذ ونيتم[٨١]سبق الجواد إذا استولى على الأمد[٨٢].

فتى قريش ناشئا وكهفها كهلاً.

يريش مملقها ويفك عانيها ويرأب صدعها ويلم شعثها حتـى حليته قلوبها.

---

(٧٨)أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة/ ١٣٨.
(٧٩)تناوله.
(٨٠)خبتم.
(٨١)فترتم.
(٨٢)الغاية.

واستشرى في دينه فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيي فيه ما أمات المبطلون وكان رحمه الله غزير الدمعة وقيذ[٨٣]الجوانح، شجي النشيج[٨٤]فانصفقت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون به و﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٥] .

فأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت له قُسيَّها وفَوّقت اليها سهامها فانتثلوه غرضاً[٨٥]فما فلوا له صفاة، ولا قصفوا له قناة، ومر على سيسائه[٨٦]حتى إذا ضرب الدين بجرانه وأرست أوتاده ودخل الناس فيه أفواجاً ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا اختار الله لرسوله ٨ ما عنده فلما قبض رسول الله ٨ ضرب الشيطان رواقه وشد طُنُبه ونصب حبائله وأجلب بخيله ورجله وألقى بركه. واضطرب حبل الدين والإسلام وحرج عهده وماج أهله وعاد مبرمه أنكاثاً. وبغي الغوائل وظن رجال أن قد أكثبت أطماعهم نُهزها[٨٧]ولات حين الذي يرجون. وأنى والصديق بين أظهرهم!! فقام حاسراً مشمراً قد رفع حاشيتيه وجمع قطريه فرد نشر الدين على غره[٨٨]، ولم شعثه بطيه وأقام أوده بثقافه[٨٩]فابذعرَّ[٩٠]النفاق بوطأته وانتاش الدين فنعشه. فلما أراح الحق على أهله وأقر الرؤوس على كواهلها وحقن الدماء في أهبها وحضرته منيته سد ثلمته بشقيقه في المرحمة ونظيره في السيرة والمعدلة. ذاك ابن الخطاب، لله أم حملت به ودرت عليه. لقد أوحدت به[٩١]ففنخ[٩٢]الكفرة وديَّخها، وشرد الشرك شذر مذر وبعج الأرض وبخعها[٩٣]فقاءت أكلها ولفظت خبئها ترأمه[٩٤]ويصد عنها، وتصدى له ويأباها . ثم وزع فيئها فيها وتركها كما صحبها فأروني ماذا تريبون ؟ وأي يوميْ أبي تنقمون؟

أيوم إقامته إذ عدل فيكم ؟ أم يوم ظعنه إذ نظر لكم؟

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم) [٩٥].

(وفي هذا الثناء كفاية إذا عمدنا إلى الثناء الذي قاله فيه عارفوه.

ولكننا في أمر أبي بكر وأمثاله نستطيع أن نتجاوز الثناء إلى مقالة الأعداء الألداء ونحن آمنون أن نسمع فيه ما يغض من فضله وينقص شيئاً من حقه. إذ ليس على عظيم من العظماء غضاضة أن يختلف فيه مختلفون،وأن يتأول أعماله متأولون. فكل عظيم من عظماء الدنيا قيل له وقيل عليه، وحسنت نيات قوم نحوه وساءت نيات آخرين فليس هذا بضائره، وليس هذا بعجيب. وإنما الميزان العادل في الحكم له أن عليه دليل القائل وليس مقال القائل. فلمن شاء أن يزعم ما يشاء فيمن يشاء ولكنه لا يوضع في الميزان إلا بدليل تؤيده الوقائع والأعمال. فهذا الذي يحسب من مقال القائلين ومن لاف المختلفين.

---

(٨٣)عليل .
(٨٤)صوت البكاء .
(٨٥)أي جعلوه هدفاً لسهامهم .
(٨٦)أي استمر ولم يثنه شيء .
(٨٧)تحققت أطماعهم .
(٨٨)طيه .
(٨٩)قوم عوجه .
(٩٠)تفرق .
(٩١)أتت به وحيداً .
(٩٢)أذل .
(٩٣)شقها .
(٩٤)تعطف عليه .
(٩٥)أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة/٧٧ – ٧٩ ، السيدة عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام /٢٢٩-٢٣١ لعبد الحميد طهماز ناقلاً عن صفة الصفوة.

فليســـت فضـــيلة أبي بكر أنه ظفر من الناس جميعاً بالثناء الذي لا معقب عليه إذ ليس هذا بممكن وليس هذا بمعقول ولا بمطلوب.

وإنما فضيلته أنه قد ظفر بالثناء ممن في ثنائه صدق ولثنائه قيمة. وأن اختلاف المخالفين لم يقم قط على دليل ولم يأت قط من أناس يحسنون ما يقولون!) أكثر من أمين :

(وكل حكم على أبي بكر مؤيد بدليل معتمد على واقع، فهو مصـــور له في صـــورة عامة واحدة لا شك فيها، وهي صورة أمين، وأكثر من أمين لأنه لم يتهم قط بخيانة في الجاهلية أو الإسلام.

وأكثر من الأمين. لأن الأمين هو الذي يعطي حق غيره. فأما الذي يعطي الأمانة ويزيد عليها، أو يعطي حق غيره ويعطي من حقه الذي لا يطلب منه، فذلك هو المفضـــل الذي جاوز قدر الأمانة فهو أكثر من أمين.

وكان أبو بكر يؤدي الأمانات في الجاهلية ويزيد عليها من عنده فضل المفضل وإحسان المحسن وإغاثة المغيث.

ثم تسلم الأمانة الكبرى بعد الخلافة فترك الدنيا وقد أداها كما هي وزاد عليها.

ولسـنا مغالين في المجاز حين نقول: إنه صـنع مثل ذلك في أمانة الخَلق أو أمانة الحياة فمات خيراً مما وُلِد. ونشـأ ضـعيفاً في بدنه كما قال رسول الله فإذا هو يسـتمد من قوة باطنه لقوة ظاهره ويلقي من مروءته على مرآه حتى أنشـــأ من نفســـه ما لم ينشـــأ من بدنه، وبلغ من المهابة بالقوة التي زادها على تكوينه الظاهر فوق ما يؤتاه أمثاله في أمثال هذا التكوين.

للناس أن يعطوه وهم على ثقة أن يستردوا ما أعطوه وزيادة.

وللحياة أن تعطيه وهي على ثقة ألا ينقص عطاؤها وألا يزال معه في ازدياد.

على كل أمانة عنده كائناً ما كان معطيها حق مصون ومزيد مضمون !

صورته المجملة أنه الأمين وأكثر من الأمين !!

الأمين في الصـــداقة، والأمين في الحكومة، والأمين في الســـيرة، والأمين في المال. والأمين في الإيمان.

ثم هو في كل أولئك أكثر من الأمين.

عصـــمته العواصـــم من فتنة الغواية فولد كريماً تعنيه العزة بين الأقوياء ولا يعنيه الطغيان على الضعفاء.

وكبر وليس له مأرب في سيادة باغية ولا في صولة دائمة على من لا يريدها ولا يطمئن إليها.

وكبر في تكوينه حدة الشعور، وحماسة اليقين، وسليقة الإعجاب، وعصمة المروءة والوقار.

وكبر وكل فضيلة فيه تكبر إلى آمادها، فلما مات كان أكبر ما كان، وأكبر ما يتأتى أن يكون !

مات وهو صاحب الدعوة الثانية في الإسلام فكان الثاني حقًّا بعد النبي عليه السلام في كل شيء:

من قبول الإســلام، إلى ولاية أمر الإســلام إلى تجديد دعوة الإســلام بعد أن نقضــت الردة دعوته الأولى وأوشكت أن ترجع بها إلى الجاهلية الجهلاء.

ثاني اثنين وأول مقتد وأول مجيب:

ذلك موضعه في تلك الدعوة الإنسانية التي نشأت في أمة واحدة ثم غيرت ما بعدها في جميع الأمم. سواء منها من علم بها ومن لم يعلم وهي دعوة صديقة وصفية ونبيه صلوات الله عليه.

قيل : إنه مات بالســم في أكلة أكلها قبل عام من وفاته. وليس لهذا القول مرجع يميل الباحث إلى تصديقه.

وقيل : إنه مات بالحمى ... وانتهت حياة بلغت نهايتها في حيز الجســد، وفي حيز المجد، وفي حيز التاريخ) [٩٦].

وأخيراً..

فليعلم الباحثون عن الحقيقة..

أن أصول الدين لها طريقها الرباني اللاحب..

وصراطها الواضح المستقيم.

إنها – اختصار جامع مانع - آيات قرآنية.. صريحة جلية.

ليس غير.

ولعلني في الصفحات التي خلت قد أودعت ما يجلّي هذه الحقيقة الكبرى، بالدليل التطبيقي الذي يجد من خلاله الباحث المنصف أن (الإمامة) لا يصح شرعاً أن تثبت بسلوك غير هذا الطريق، وإلا فإن كل من أراد استطاع أن يثبت ما شاء من (الأئمة) –وهو الواقع- لانعدام الضابط الجامع المانع. وعلى هذا الأساس يكون من السهل جدًّا إثبات (إمامة) أبي بكر الصديق وبالمعنى الشيعي للإمامة، بل معها إثبات أنه أحق بها من أبي الحسن؛ فإن الآيات التي نزلت في حقه أصرح وأوضح، وأخص وأقوى. أما الأحاديث فأقل ما يقال فيها أنه ما من حديث أو رواية هنا، إلا ويوجد ما هو خير منها أو مثلها هناك! والسجال فيها ليس له حدود. وأما الآراء والعقليات فهي البحر الذي لا ساحل له. ولكن يبقى عندنا ما لا يمكن دفعه، أو الإغماض عن مقتضــاه بشــرط أن يكون الباحث ســليماً لا يعاني من عقدة (العصــمة) الشيعية، أو عقدة (التقديس) السنية- ألا وهو الإنجازات.

إن إنجازات الصديق لا يقاس بها إنجازات غيره من الصحابة..

وحين نقارن بين أبي بكر وعلي من هذه الناحية نجد الفرق كبيراً بينهما. ولن نســتطيع ردم الهوة الحاصلة إلا بالتعلل والمعاذير، وإلقاء التبعة على الظروف، والدوران خارج نطاق الذات. من مثل هذه الحكاية المشــتهرة: (جاء رجل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ فقال له: لقد كنا في زمن أبي بكر وعمر في أمن وعافية، حتى إذا جئت أنت وعثمان حلت الفتن! فأجابه أمير المؤمنين: هذا لأنه حين كان أبو بكر وعمر أمراء كنت أنا وعثمان الرعية. وحين صــرت أنا وعثمان أمراء صــرت أنت وأمثالك الرعية). ولا أرى هذا إلا من ترقيع المتأخرين الذين لا يهمهم أن يخرجوا بالتاريخ عن ســياقه الموضــوعي، ويصــعب عليهم أن ينظروا إلى الأحداث بغير عين العاطفة؛ فإن معاوية ﷺ حين صــار أميراً – والرعية هي الرعية - انتظم عقدها بعد انفراط ، ولم يكن فيها عثمان ولا علي، بل كان فيها (هذا وأمثاله). علماً أن عثمان ﷺ حين كان أميراً كان في الرعية علي وعبد الرحمن، وســعد وســعيد، وطلحة والزبير! فلماذا لم يوقفوا تدهور الأمور، ويأخذوا على يد (هذا وأمثاله)؟!

---

(٩٦)عبقرية الصديق - عباس محمود العقاد ص١٨٥ – ١٨٨.

من طريف ما قصه عليَّ معمم شيعي أن أحدهم جاءه يريد منه إعانته في الجواب على سؤال عن إنجازات كل واحد من الخلفاء الراشدين؟ وكان هذا أحد الأسئلة المطلوب الجواب عنها في إحدى (الدورات الإيمانية) أيام العهد السابق. يقول: فقلت له وبكل ثقة: بسيطة.. اكتب. وصرت أملي عليه وبسرعة:

أولاً : إنجازات أبي بكر الصديق:

١- القضاء على المرتدين .

٢- توحيد الجزيرة العربية.

٣- جمع القرآن.

٤- ...إلخ.

ثانياً : إنجازات عمر بن الخطاب:

١- تحرير العراق.

٢- إسقاط دولة فارس.

٣- تحرير بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا.

٤- تدوين الدواوين. ...إلخ.

ثالثاً إنجازات عثمان بن عفان:

١. جمع القرآن.

٢. فتح أذربيجان.

٣. بناء أول أسطول بحري إسلامي.

٤. ...إلخ.

رابعاً :إنجازات علي بن أبي طالب: ..

يقول صاحبي: وفوجئت أنني أتوقف هنا ! ولم أتمكن من أن أستحضر شيئاً بالسرعة نفسها، وصرت أجرجر بالحروف والكلمات أداري حيرتي!. وكنت أفكر بسرعة البرق: ماذا أقول؟ معركة الجمل؟ معركة صفين؟! هل هذه إنجازات؟ أم كوارث؟! فتح.. فتح..؟ فتح ماذا؟! يقول: وأحرجت إحراجاً شديداً! ثم تداركت الأمر بأن ذكرت قتال الخوارج، ورجعت إلى الوراء فذكرت إسلامه، وموقفه في الهجرة وأشياء أخرى خارج دائرة السؤال لأنها قبل الخلافة، ولكن ذكرتها تمشية للحال، وتخلصاً من الإحراج!.

هذه حقيقة:

وليس في هذا تنقص من أحد؛ فالحقيقة لا تنال من منازل العظماء.

وإنما يخافها الصغار والمعوقون. وليس في أصحاب رسول الله ^معوق، ولا صغير.

وليس يعني هذا أنه لم تكن لأبي الحسن ذلك الصحابي الجليل من مآثر وفضائل. كلا.. فمآثره كثيرة، وجهوده وسوابقه عظيمة.

ولكن عند المقارنة بمن هو أعظم يبدو الفرق. أقول هذا وأنا أعلم أنه ثقيل على بعض الأسماع التي تعاني من عقدة (التقديس) – عند أهل السنة - أو (العصمة) – عند الشيعة -. فإلى متى نتحدث في الزوايا؟ وقد بلغ الاستهزاء بعظماء الصحابة عنان السماء! لقد أكل الصمت شفاهنا، وذوّب حناجرنا (حذراً من «الفتنة») كما يقولون، والله تعالى يقول: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ ! وما أدراك؟ لعل في النطق شفاءً مما يعانون؛ فقد جربنا (وصفة) الصمت فما زادتهم إلا خبالاً، ولم تزدنا إلا وبالاً ! فدعونا نخرج من هذا القمقم! فما أفلح محصور قط. وأرض الله واسعة؛ فلا داعي لهذا الضيق والتضييق. وقد قال الحكماء من قبل: هي كلمة، إن قلتها متَّ، وإن لم تقلها متَّ؛ فقلها ومتّ.

وصلى الله تعالى وسلم وبارك على نبينا محمد.. وعلى آله أصحابه وأتباعه أجمعين.

اللطيفية

١٨ ذي القعدة ١٤٢١

١٢ شباط ٢٠٠١

المصادر

-(بعد القرآن العظيم)

- الصحيح الجامع ، محمد بن إسماعيل البخاري ، دار القلم ، بيروت ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج النيسابوري ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٨٥م.
- سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني ، المكتبة العصرية ، بيروت.
- سنن الترمذي ، محمد بن عيسى الترمذي ، المكتبة الإسلامية ، ١٩٨٣م.
- مسند أحمد ، أحمد بن حنبل الشيباني ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٥م.
- أبو بكر الصــديق ﷺ ، د.نزار الحديثي و د.خالد جاسـم الجنابي ، دار الشـؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٩م.
- الانشراح ورفع الضيق في سيرة أبي بكر الصديق ، الدكتور محمد علي محمد الصلابي ، دار ابن كثير ، دمشق - بيروت ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م.
- أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة ، رفيق العظم.
- عبقرية الصديق ، عباس محمود العقاد ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة عشرة.
- الحجج الدامغات لنقض كتاب المراجعات ، أبو مريم الأعظمي.
- التفسير الكبير ، محمد بن عمر الرازي.
- أسباب النزول في حاشية روائع البيان لمعاني القرآن ، أيمن عبد العزيز جبر.
- الرزية في القصيدة الأزرية ، الأستاذ محمود الملاح.
- نهج البلاغة ، الشريف الرضي ، شرح محمد عبدة ، دمشق.
- شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، مكتبة المرعشي ، قم ، ١٤٠٤هـ.ق.
- الأصول من الكافي ، محمد بن يعقوب الكليني ، مكتبة الصدوق ، طهران ، ١٣٨١هـ.



الفهرس

